دروس في تفسير القرآن الكريم

السيد جعفر مرتضى العاملي

تفسير سورة التين



المركز الإسلامي للدراسات

تفسير سورة

التين

الطبعة الأولى

٢٠١٦م - ١٤٣٧هـ



المركز الإسلامي للدراسات
لبنان - بيروت - الضاحية الجنوبية - أوّل حي ماضي
بناية حجازي - ط1 - تلفاكس: 00961.1.274519
البريد الالكتروني: alhadi@alhadi.org

المنشورات: بيروت - بئر العبد - سنتر الانماء 3 - 00961 70995421

تفسير سورة التين

السيد جعفر مرتضى العاملي

المركز الإسلامي للدراسات


بسم الله الرحمن الرحيم



وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1)

وَطُورِ سِينِينَ (2)

وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ (3)

لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5)

إِلاَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6)

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7)

أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ(8).

صدق الله العلي العظيم

تقديم:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين، محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة على أعدائهم أجمعين من الأولين والآخرين إلى قيام يوم الدين.

وبعد..

فإنني أقـدم للقارئ الكريم تفسير سـورة التين، الذي هـو عبارة عـن دروس ألقيت على مجموعة من الشباب وغيرهم من الأحبة والأصدقاء، ثم استخرجت من أشرطة التسجيل، وأعيد النظر فيها، أو نالها بعض التقليم والتطعيم..

فإن وجد القارئ الكريم فيها خطأ، أو قصوراً، أو تقصيراً، فأملنا هو أن يلفت نظرنا إلى ذلك، ونحن له من الشاكرين، وإن وجد فيها صواباً،

فبفضل الله تعالى ومنه، ومن كرمه وتسديده..

فما أحرانا بأن نخلص له بالدعاء والابتهال بأن يوفقنا جميعاً لمثله..

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين..

ضاحية بيروت الجنوبية (حارة حريك)

حرر بتاريخ 24/رجب /1437 هـ.ق.

الموافق 2/أيار/ 2016م.ش.

جعفر مرتضى الحسيني العاملي

الفصل الأول:

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ **وَطَورِ سِينِينَ..**

سورة التين مكية:

قيل: إن سورة التين مكية، واستدلوا على ذلك بأمرين:

الأمر الأول: إن هذه السورة تتحدث عن خلق الإنسان، ومسيرته في الحياة ومآله.. والهدف هو الإثبات أن البعث حق، ولا مجال لإنكاره..

ومن المعلوم: أن أمر البعث والنشور أمر بالغ الحساسية، بالنسبة للمشركين والكافرين، لأن الإيمان بالبعث يحتم الإيمان بأهدافه.. إذ هو حقيقة وليس مجرد نزهة، ولا هو رؤيا منام، ولا أضغاث أحلام.. بل بعث فيه حساب، ثم الثواب والعقاب..

ويقال: إن الكلام عن البعث إنما يناسب أن تكون السورة مكية.

ويجاب:

أولاً: إن المعيار في مكية السورة ومدنيتها هو النقل بالدرجة الأولى، بالإضافة إلى أن السورة إذا كانت تعالج أحداثاً نعلم بأنها حصلت في مكة، فالسورة تكون مكية.

ثانياً: هناك سور نزلت في المدينة، قد تحدثت عن الإنسان، وعن البعث والنشـور، مثل سورة الرحمان، وسورة الرعد، وسورة الزلزلة، وهـذا يدل

على أن مجرد التوافق في المضامين الذي اشتملت عليه سورة مكية مع مضامين سورة مدنية أخرى لا يعني لزوم اعتبار هذه السورة مكية، أو العكس.

ثالثاً: إن الكفر والشرك الذي كان له حضور في مكة، كان أيضاً له حضور في محيط المدينة، وكان مسير الدعوة يفرض طرح المضامين العقائدية في المدينة على النحو الذي كانت تطرح فيه في مكة.. وإن كان ذلك بنسبة أقل.

الأمر الثاني: استدلوا بقوله تعالى في سورة التين: ﴿**وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ**﴾[1]، لأن كلمة «هذا» يشار بها إلى القريب.

والبلد الأمين: هو مكة ـ كما سيأتي ـ فتدل هذه الإشارة على أن هذه السورة نزلت في مكة.

ويجاب:

بأن القرب له مفهوم واسع، وإطلاقه على الأشياء بلحاظات مختلفة، فقد يقال للحاضر في الذهن بصورة تكاد تكون متواصلة: إنه قريب، ويشار إليه بكلمة هذا.

وقد يقال لأمر ذكرته في خطابك لجليسك: إنَّه قريب، وتشير إليه بكلمة «هذا».

وقد يقال لأمر يعرفه الناس، أو يعتبرونه من مفاخرهم، أو من عاداتهم:

---

(1) الآية 3 من سورة التين.

إنه قريب، وتشير إليه بكلمة «هذا».

وقد يطلق القريب على بلد، أو مكان عرف وامتاز بأمر بعينه، أو حدث فيه أمر عظيم، كالزلزال، أو الخسف، أو الحريق الهائل، ثم تشير إليه بكلمة هذا البلد الفلاني قد أصابه زلزال مثلاً.. أو هذه إيران تصنع السجاد مثلاً..

ومكة حاضرة في ذهن كل إنسان حضوراً فعلياً في أكثر الأوقات، لما لها من قداسة، ولكونها قبلة المسلمين، فلا بد أن يستحضروها ويقصدوها في صلواتهم الواجبة كل يوم خمس مرات، فما بالك بصلواتهم المستحبة.. فتصح الإشارة إليها بكلمة «هذا» من أي متكلم كان.

ومن الواضح: أن الذي استعمل كلمة «هذا» هو الله سبحانه، وليس النبي «صلى الله عليه وآله»، وكل شيء حاضر لديه تعالى، وبين يديه، وليس ثمة ما هو بعيد عنه..

فالإشارة منه بكلمة «هذا» لا تدل على أن النبي «صلى الله عليه وآله» في مكة، لا من قريب ولا من بعيد..

ولو سلمنا أنها تدل على ذلك، لأنه تعالى يخاطب الناس من خلال الرسول الحاضر، فإننا نقول:

إن الإشارة الإلهية إلى مكة بما يدل على القرب، لا يعني القرب المكاني كما تقدم بيانه..

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ:

تبدأ هذه السورة المباركة بالقسم بالتين، وبالزيتون ومعنى القسم هنا

هو جعل بقاء، أو عظمة أو قدسية ما تقسم به، وهو التين أو الزيتون، أو غيرهما مثلاً، مرهوناً بصحة وواقعية ما ورد في السورة من خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم رده أسفل سافلين إلا الذين آمنوا..

أو تجعل أمراً ما في دائرة الضمانة الإلهية، بأن يكون تعالى هو المحاسب والمطالب والمعاقب على الإخلال لو حصل، فإذا أقسم أحد بالله على فعل شيء، فإن هذا القسم يعني أن الله تعالى هو الذي يتولى العقوبة على الإخلال بمضمون القسم.

والله تعالى لا يعجزه شيء، فهو قوي قدير، عالم، حي قيوم، حكيم، رازق وخالق، وهو الحافظ والشافي، فأن يقسم الإنسان بالله، فإنما يقسم بمالك الملك، الذي هو أعظم من كل عظيم، وأعلم من كل عليم، وأحكم من كل حكيم.. و.. و..

ولكن حين يقسم الله تعالى بمخلوقاته، فإنه تعالى يقسم بما هو بيده، وفي قبضته، ولا حول ولا قوة له إلا به..

إلا أن له أهمية كبيرة وجليلة بالنسبة إلينا فيما يرتبط بموقعه وتأثيره في المنظومة التكوينية العامة التي تتحكم بمسير الحياة، وتحقيق الأهداف المتوخاة منها.

أهداف القسم بالمخلوقات:

وليس الهدف من قسمه تعالى بالمخلوقات هو أن يثبت به صدقه ـ فيما يخبر به ـ فإننا نعلم: أن الله تعالى لا يقول إلا الحق.. وإنما لهذه الأقسام أهداف

أخرى.. مثل:

1 ـ إيجاد القناعة لدى ضعفاء النفوس، وضعيفي الإيمان بحتمية تحقق ما يذكره تعالى لهم.

2 ـ أن يكون الهدف أيضاً هو الدلالة على أهمية وعظمة الشيء المقسم به، وحساسية دوره.. لتأكيد عظمة الله تعالى في النفوس، من خلال عظمة مخلوقاته.

3 ـ وقد يكون الهدف هو إرشاد الإنسان إلى عظيم نفعه لهم، ولزوم عدم الغفلة عنه، والحث على الاستفادة منه، والتحذير من أهماله..

4 ـ وربما يكون الهدف هو فتح آفاق المعرفة أمام الناس، ودفعهم للتفكر في أسرار الخلق، المودعة بما يقسم به، والتأمل في دقائقه، والسعي لكشف حقائقه لما لها من أثر في صنع الحياة، ورسم معالم النجاح فيها.. الأمر الذي يحث الإنسان المؤمن على المزيد من التعلق بالله، والرغبة في التماس سبل نيل رضاه، والحصول على مواقع القرب والزلفى لديه..

5 ـ أن يكون الهدف هو ترسيخ درجة اليقين لدى الناس، أو إعدادهم للمهمات الصعبة، والمواقف المصيرية.

للتدليل على ما سبق:

ويرشدنا إلى ما ذكرناه آنفاً قوله تعالى: ﴿**أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ**

سُطِحَتْ﴾[1].

فإن الأمور التي يتعامل معها الإنسان عن قرب، بصورة متواصلة، ويعتاد عليها، لا يخطر على باله أن فيها أسراراً عليه أن يبحث عنها، ويستفيد منها الفكرة والعبرة. بل هو قد يغفل حتى عن الأشياء الظاهرة فيها. وإذا احتاج إليها، فإنما يخطر على باله هذا الموجود الكلي، الذي لو أراد أن يبحث عن خصوصياته، لوجد فيها إبهامات كثيرة.. لم تكن تعنيه، ولا تثير لديه أي شعور استفزازي يفرض عليه التدقيق والتأمل فيها، فضلاً عن أن تلزمه بالبحث والتقصي.

فحين يقسم الله بالإبل، وبالعاديات، والتين والزيتون، والشمس والقمر، والنهار، والضحى، والعصر، إنما يريد أن يستفز الإنسان للتأمل والبحث العميق. وليحدد موقعه منها، وحجم فهمه لها، وكمية معلوماته ومعارفه عنها، وعن هذا الكون الذي يتعامل معه.. الذي لو فهم اليسير من أسراره، وكشف القليل من حقائقه، فسيكون قادراً على تسخير بعض ما فيه، لجهة سلامة انطلاقته في الحياة، وسيره المتواصل في معارج ومدارج الكرامة والشهامة.

وزيادة في التوضيح والبيان نقول:

لا نظن أن أحداً من الناس يشعر بأن للضحى وللعصر، وللنهار إذا

---

(1) الآيات 17 ـ 20 من سورة الغاشية.

تجلى، والليل إذا يغشى، والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها، وغير ذلك، خصوصيات لها قيمة كبرى، وأهمية عظمى تبرر القسم بها..

مع أن هذه الأمور هي أقرب الأشياء إليه، فهو يكدح ويعيش، ويتعب، ويذهب ويجيء معها وفيها، ويتعامل مع الناس، أو مع سائر المخلوقات في غمارها، ولكنه لا يشعر بأن للنهار أو للضحى أو العصر، أو الليل، أو غير ذلك مما ذكر أو لم يذكر دوراً حاسماً وعظيماً في حياته..

وشعوره المبهم بحاجته للنهار، حين يحل الليل، ليس له أي أثر عملي، في تلبية هذه الحاجة، ولا يدعوه هذا الشعور إلى رصد خصوصيات النهار، أو الضحى أو العصر، واسْتِكْنَاه حقائقها، وكشف أسرارها.. فهذا الشعور الخاوي من أي أثـر عملي لا قيمة له، لأنه ينطلق من أمـور هامشية، ليس لها أي مضمون ذي بال.

وهكذا يقال بالنسبة للتين والزيتون، فإنه إذا أقسم الله تعالى بهما، ينتبه الناس إليه، ويرمقونه بأبصارهم، وتثور لديهم التساؤلات الكثيرة عن حقيقة ما في التين والزيتون من أسرار وفوائد وعوائد.. ولاسيما إذا وصفت شجرة الزيتون في آية آخرى بـ «المباركة».

أنواع مما أقسم الله تعالى به:

هناك أمور أقسم الله تعالى بها لها دور أساس وحساس جداً في المنظومة الكونية، ولا تستقيم الحياة بدونها، ولو عرض لها أدنى تغيير في مسارها، أو في بعض أحوالها، فلربما يوجب ذلك اختلال الحياة كلها.

وذلك مثل: الشمس والقمر، والليل والنهار.. وغير ذلك.

وهناك أشياء أقسم بها الله سبحانه، بهدف الدلالة على أسرارها، ولزوم التفكر فيها واكتشافها.

وهناك ما هو من قبيل النعم الإلهية التي يحتاج الإنسان إلى إدراك أهميتها وقيمتها، ويعمل على شكرها، وينال بهذا الشكر المزيد من الرعاية الإلهية، والهبات الربانية..

وليكن من هذا القبيل القسم بالتين، والزيتون، وبالإبل، وغير ذلك..

وهناك ما يقسم الله تعالى به، ليدل الإنسان على بديع صنعه تعالى، وعلى علمه، وحكمته، وقدرته، بهدف تعميق الإيمان به تعالى في النفوس، وليكون هذا الإيمان الراسخ هو المرتكز لبناء شخصية الإنسان الكامل، كما في قوله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا**﴾[1].

بل إن هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾[2]. تريد للإنسان أن يعي موقعه، ويتخذ قراره، لأنه هو الذي يتحمل مسؤولية هذا القرار، وليس له أن يلقي مسؤولية أعماله وقرارته على الآخرين، مثل أبويه، أو بيئته، أو ما إلى ذلك..

تراتبية في البركات والخصوصيات:

وإذا تأملنا في آيات سورة التين، فسنجد: أنها أشارت إلى أمور أربعة، هي:

---

(1) الآية 7 من سورة الشمس.

(2) الآيتان 7 و 8 من سورة الشمس.

التين، والزيتون، وطور سينين، والبلد الأمين.

ويلاحظ: أن الثلاثة الأخيرة من هذه الأمور لها بركات، وقداسات مشهودة، وخصوصيات في غيرها مفقودة.

فالتين شجر مثمر، لا نعرف الكثير عن فوائده وعوائده، ولكنه قُرِنَ بشجر الزيتون، وقدم عليه في الذكر.

ثم قرن هذا وذاك بأمرين، لهما مكانة معروفة، وقداسة موصوفة، وهما: طور سينين، والبلد الأمين.. أعزها الله.

ويلاحظ: أن هذه الأمور الأربعة قد ذكرها الله تعالى في هذه السورة مراعياً فيها التراتبية، من الأدنى إلى الأعلى، فيما يرتبط بالخصوصيات، والمميزات، والحالات والبركات.

فلاحظ ما يلي:

1 ـ بالنسبة للتين نقول:

روي عن الإمام الرضا «عليه السلام»: التّينُ أشبَهُ شَيء بِنَبَاتِ الجَنَّة[1].

وروي للتين فوائد كثيرة[1].

---

(1) المحاسن (ط دار الكتب الإسلامية ـ طهران) ج2 ص554 وعن مكارم الاخلاق، والفردوس. وراجع: الكافي ج6 ص358 وبحار الأنوار ج63 ص185 و 186 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج25 ص170 و (الإسلامية) ج17 ص133 والفصول المهمة للحر العاملي ج3 ص112 ومرآة العقول ج22 ص199

وعـن النبي «صلى الله عليه وآله»: كلـوا التين، فـإن على كل ناحـية منه: «بسم الله القوي»[2].

2 ـ بالنسبة للزيتون نقول:

قـال تعالى: ﴿**اللهُ نُـورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُـورِهِ كَمِشْـكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[3].

وعن أبي الحسن «عليه السلام»: كان مما أوصى به آدم إلى هبة الله «عليهما السلام»: «أن كُل الزيتون، فإنه من شجرة مباركة»[4].

وعن النبي «صلى الله عليه وآله»: كلوا الزيت، وادَّهنوا به، فإنه من شجرة

---

(1) بحار الأنوار ج63 ص185 و 186 ومكارم الأخلاق ص174

(2) بحار الأنوار ج63 ص187 عن الفردوس.

(3) الآية 35 من سورة النور.

(4) المحاسن ص472 و (ط دار الكتب الإسلامية ـ طهران) ج2 ص484 وبحار الأنوار ج63 ص182 والكافي ج6 ص331 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج25 ص96 و (الإسلامية) ج17 ص72 ومرآة العقول ج22 ص161.

مباركة[1].

وعن الإمام الكاظم «عليه السلام»، عن أبيه، عن جده: كان فيما أوصى به رسول الله «صلى الله عليه وآله» علياً «عليه السلام»: أن قال له: يا علي، كل الزيت، وادّهن به، فإنه من أكل الزيت لم يقربه الشيطان أربعين يوماً[2].

وعن النبي «صلى الله عليه وآله»: الزيت دهن الأبرار، وآدام الأخيار، بورك فيه مقبلاً، وبورك فيه مدبراً، انغمس في القدس مرتين[3].

وفي نص آخر عن أمير المؤمنين «عليه السلام»: مسحت بالقدس مرتين، بوركت مقبلة، وبوركت مدبرة، لا يضر معها داء[4].

---

(1) المحاسن ص472 و (ط دار الكتب الإسلامية ـ طهران) ج2 ص484 وبحار الأنوار وج59 ص282 وج63 ص182 والكافي ج6 ص331 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج25 ص94 و (الإسلامية) ج17 ص71 ومستدرك الوسائل ج16 ص365 ومكارم الأخلاق للطبرسي ص191.

(2) المحاسن (ط دار الكتب الإسلامية ـ طهران) ج2 ص485 وعيون أخبار الرضا ج2 ص42 وبحار الأنوار ج63 ص179 و 183 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج25 ص96 و (الإسلامية) ج17 ص71 ومكارم الأخلاق للطبرسي ص48 و 190.

(3) المحاسن (ط دار الكتب الإسلامية ـ طهران) ج2 ص485 والكافي ج6 ص332 وبحار الأنوار ج63 ص183 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج25 ص95 و (الإسلامية) ج17 ص71 ومرآة العقول ج22 ص162.

(4) المحاسن (ط دار الكتب الإسلامية ـ طهران) ج2 ص484 والكافي ج6

وقد ذكرت الروايات المباركة للزيت والزيتون فوائد كثيرة، يمكن لمن أرادها أن يراجعها[1].

3 ـ بالنسبة لطور سينين، ويسمى أيضاً طور سيناء، فإنه هو الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى، وهذا يجعل له قداسة خاصة عبَّر الله عنها هنا، بأن أقسم به في سورة التين..

وإن كان المراد بطور سينين هو الكوفة، كما ورد في بعض الروايات[2].

فهذا يتلاءم مع ما روي عن علي «عليه السلام»، من أن أول الطور ـ طور سيناء ـ موضع دفن أمير المؤمنين «عليه السلام» بظهر الكوفة[3].

وعن الإمام الصادق «عليه السلام» عن الغري: «وهو قطعة من الجبل الذي كلم الله عليه موسى «عليه السلام» تكليماً، وقدس عليه عيسى تقديساً»[4].

ص331 وبحار الأنوار ج63 ص182 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج25 ص95 و (الإسلامية) ج17 ص71 ومرآة العقول ج22 ص161.

(1) بحار الأنوار ج63 ص179 ـ 183.

(2) معاني الأخبار ص264 وعنه البرهان للبحراني (مؤسسة البعثة سنة1417 هـ.) ج5 ص692 و694 والخصال ج1 ص255.

(3) فرحة الغري ص50.

(4) راجع: روضة المتقين ج5 ص366 والوافي ج14 ص1407 وكامل الزيارات ص90 وتهذيب الأحكام ج6 ص23 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج14 ص385

وإذا كانت مقبرة وادي السلام هي موضع اجتماع أرواح المؤمنين، ولا يحاسب من يدفن فيها[1]. فإن ذلك يوضح لنا مدى عظمة هذه البقعة المباركة، ويشير إلى أهميتها البالغة لكل مؤمن ومؤمنة.

4 ـ وبالنسبة لقسمه تعالى بهذا البلد الأمين نلاحظ:

ألف: إن مكة هي أشرف بقاع الأرض، وأعظمها أهمية، وأعلاها مكانة. ولا نرى أننا بحاجة لإيراد النصوص الدالة على ذلك..

ب: إن الآيات في سورة التين قد ألمحت إلى خصوصية تفردت بها مكة، وهي قضية الأمن.. ففي دعاء إبراهيم «عليه السلام»: ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِناً**﴾[2].

وفي دعاء آخر: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً**﴾[3].

وقال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِناً**﴾[1].

و (الإسلامية) ج10 ص300 والغارات للثقفي ج2 ص853 والمزار للمفيد ص21 والمزار لابن المشهدي ص37 وبحار الأنوار ج97 ص232 و 258 ومستدرك سفينة البحار ج9 ص543 وإرشاد القلوب ج2 ص439.

(1) فرحة الغري ص73 و74 و (نشر مركز الغدير) ص58 وتهذيب الأحكام ج6 ص38 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج3 ص161 و (الإسلامية) ج2 ص833 وج3 ص532 والمزار للمفيد ص13.

(2) الآية 126 من سورة البقرة.

(3) الآية 35 من سورة إبراهيم.

وسنوضح قيمة هذه الخصوصية في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

خصوصيات أخرى:

وثمة خصوصيات أخرى في مكة، تضاف إلى خصوصية الأمن، مثل:

1 ـ جانب القداسة.

2 ـ جانب الطهر.

3 ـ مركزية ومحورية مكة في الدين الإسلامي.. كما يشير إليه اعتبارها قبلة، بالإضافة إلى مركزيتها في مراسم الحج.

4 ـ التكريم والتعظيم لهذا البلد..

وغير ذلك مما سنذكره في هذا الفصل تحت عنوان: «كل شيء من لا شيء».

لا نريد البحث في الأقوال:

وهل المراد بالتين والزيتون شجرتها، أو المراد ثمرتها؟! هذا مما لا يعنينا البحث فيه هنا.

وقيل أيضاً: طور اسم جبل. وسينين: سيناء، وسينة، اسم شجرة ـ كما قيل ـ. وقيل: بمعنى سينين المكان الجميل، أو المكان ذي الأشجار الكثيرة. وهذا كسابقه مما لا نريد البحث فيه أيضاً.

وما يهمنا من طور سينين (أو سيناء) هو عظمته، وقداسته، وأهميته، لاسيما مع علمنا بأن الغري هو قطعة من الجبل الذي ناجا فيه موسى «عليه

---

(1) الآية 67 من سورة العنكبوت.

السلام» ربه، وقدَّس عليه عيسى تقديساً، واتخذ عليه إبراهيم خليلاً، واتخذ محمداً عليه حبيباً، وجعله للنبيين مسكناً[1].

وفيه مدفن أمير المؤمنين «عليه السلام» ـ كما تقدم ـ، وفي الغري وادي السلام، وفيه أمور أخرى مهمة ذكرت في الروايات.

والغري: هو أول طور سيناء، كما تقدم..

مما يعني: أن هذا الطور ممتد إلى مسافات شاسعة، تصل إلى مئات الأميال، إن لم نقل أزيد من ذلك.

وسنذكر في أوائل الفصل التالي بعض ما يرتبط بالقسم بطور سينين..

---

(1) فرحة الغري ص74.

الفصل الثاني:

وَهَذَا الْبَلَدِ الأمِينِ..

موقفان متغايران:

لعل سؤالاً يُطرح حول القسم بمكة، فيقول: كيف أقسم الله تعالى هنا بمكة، مع حلول النبي «صلى الله عليه وآله» فيها، بقرينة قوله: ﴿**وَهَذَا**﴾. إذ لو كان «صلى الله عليه وآله» في المدينة لاستفاد من اسم الإشارة للبعيد.. مع أنه في سورة البلد يقول: ﴿**لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾؟![1].

فإن كان وجود النبي «صلى الله عليه وآله» في مكة يمنع من القسم بها، إجلالاً وإكراماً له، فلماذا لم يمنع من القسم بمكة في سورة التين إجلالاً لرسول الله «صلى الله عليه وآله» أيضاً؟!

ويجاب:

أولاً: بأن ما تقدم في سورة البلد، يختلف في مراميه وأهدافه عما ترمي إليه سورة التين.. فإن سورة البلد تريد من القسم المتعدد التمهيد لدعوة الناس إلى الالتزام بالأحكام، وبالطاعة والانقياد لله ولرسوله.. وأن لا يظن أحد أنه قادر على الإفلات من العقاب، أو أنه يستطيع أن يخفي نفسه عمن

---

(1) الآيتان 1 و 2 من سورة البلد.

هو أقرب إليه من حبل الوريد.. فالكلام موجه لمن يفترض إيمانه بالبعث والحساب، ويريد أن يبتعد عن خط الطاعة والانقياد..

فالمناسب في مقام كهذا إظهار عظمة، وتأكيد جلالة، والجهر بكرامة رسول الله «صلى الله عليه وآله».

وقد تجلى هذا الإجلال: بأن لا يقسم بمكة ورسول الله «صلى الله عليه وآله» فيها تعظيماً له، وتفخيماً، وتكريماً، وتعليماً للناس، وتعويداً لهم على احترام وتعظيم هذا النبي الكريم والعظيم.

أما في سورة التين، فقد كان المطلوب: هو تصحيح اعتقاد أولئك المنكرين للبعث والحساب، والثواب والعقاب.. وإيقاظ عقول المنكرين من سباتها، من خلال تذكيرهم ببدائع صنعه تعالى، وعظيم نعمه، وجزيل بركاته، بالقسم بالتين أولاً، ثم بالزيتون..

ثم أقسم لهم بما لا ينكرون قداسته، ولا يجرؤون على الاستهانة به، فأقسم بطور سينين، ليدل على اتصال حاضِرِ هذه الدعوة الإيمانية بماضيها البعيد، ولكي يتمثلوا في ضمائرهم: أنها دعوة واحدة، تصل الماضي بالحاضر، ثم تصلهما معاً بالمستقبل.

كما أن طور سينين له قداسة لدى الأمم المختلفة والمتعاقبة. ويشير إلى وحدة مساراها، في مختلف مراحلها.

كما ويشير إلى اجتماع الأديان السماوية على هذا التقديس، من خلال كونه موضع تكليم الله لموسى، وموضع تقديس عيسى، وموضع اتخاذ إبراهيم خليلاً، ومحمد نبياً. فضلاً عن كونه مسكن الأنبياء، كما تقدم.

ثم يمتد هـذا الاستيعاب، ليشمل المستقبل لهذا الدين، من خلال مـا تمثله الإمـامة الخاتمة، ويمتد إلى يـوم القيامة، ليكون الغري وجوار علي «عليه السلام» هو موضع الأمن للمؤمنين إلى يوم القيامة..

ثم أقسم لهم أخيراً بمكة، التي هي الأقدس والأنفـس لدى الناس، حتى المشركين منهم، الذين كانوا معنيين بالخطاب في هذه السورة، فإن مكة مصدر عزهم، وموضع أملهم، وغاية أمانيهم. بل ليس لديهم من القداسات الحاضرة سواها..

وهذا هو القسم الأهم بالنسبة إليهم، والأبعد أثراً، ولم يكن المطلوب الإشارة إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» هنا، بل المطلوب التذكير بالخالق بما له من صفات وتفضلات.

ثانياً: إن سـورة البلد قد نزلت حين كان النبي «صلى الله عليه وآله» لا يزال في مكة، بدليل قوله تعالى: ﴿**وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾[1].

لكن لا دليل قاطعاً على نزول سورة التين في مكة، بل لعل قوله تعالى: ﴿**وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ**﴾[2]. إذا انضم إلى آيات سورة البلد ينتج: أن الأرجح: أن تكون سورة التين قد نزلت بالمدينة، فلا مانع من القسم بمكة في هذه الحالة، لاسيما وأن الله تعالى هو الذي استعمل كلمة «هذا» التي يشار بها إلى

---

(1) الآية 2 من سورة البلد.

(2) الآية 3 من سورة التين.

القريب، ولا يوجد قريب وبعيد بالنسبة إليه تعالى، بل الأمور كلها حاضرة لديه، والقرب والبعد إنما هو بالنسبة إلينا، لا بالنسبة إلى الله تعالى.

مكة في النصوص:

لقد ورد في القرآن الكريم، وفي كلمات الأئمة المعصومين، وفي كلمات الآخرين، الكثير من النصوص التي تشير إلى أحوال مكة في عصر البعثة..

ونذكر من الآيات ما يلي:

قال الله تعالى على لسان إبراهيم «عليه السلام»: ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**﴾[1].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا**﴾[2].

وقال: ﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾[3].

وقال تعالى على لسان إبراهيم «عليه السلام»: ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا**

---

(1) الآية 37 من سورة إبراهيم.

(2) الآيتان 96 و 97 من سورة آل عمران.

(3) الآية 26 من سورة الحج.

آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾[1].

وقال: **﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾**[2].

وقال: **﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾**[3].

وقال: **﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾**[4].

وقال سبحانه: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**[5].

وقال تعالى: **﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾**[6].

ونذكر من النصوص ما يلي:

1 ـ روي عن علي «عليه السلام» أنه قال:

---

(1) الآية 126 من سورة البقرة.

(2) الآية 97 من سورة المائدة.

(3) الآية 3 من سورة التين.

(4) الآية 57 من سورة القصص.

(5) الآية 25 من سورة الحج.

(6) الآية 34 من سورة الأنفال.

أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَه اخْتَبَرَ الأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى الآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ بِأَحْجَارٍ لَا تَضُرُّ ولَا تَنْفَعُ، ولَا تُبْصِرُ ولَا تَسْمَعُ، فَجَعَلَهَا بَيْتَه الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلَه لِلنَّاسِ قِيَاماً؟! ثُمَّ وَضَعَه:

بِأَوْعَرِ بِقَاعِ الأَرْضِ حَجَراً.

وأَقَلِّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مَدَراً.

وأَضْيَقِ بُطُونِ الأَوْدِيَةِ قُطْراً.

بَيْنَ جِبَالٍ خَشِنَةٍ.

ورِمَالٍ دَمِثَةٍ.

وعُيُونٍ وَشِلَةٍ.

وقُرًى مُنْقَطِعَةٍ.

لَا يَزْكُو بِهَا خُفٌّ ولَا حَافِرٌ ولَا ظِلْفٌ.

ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ ووَلَدَه أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَه.

فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ، وغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ.

تَهْوِي إِلَيْه ثِمَارُ الأَفْئِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ، ومَهَاوِي فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ، وجَزَائِرِ بِحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ، حَتَّى يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلًا، يُهَلِّلُونَ لله حَوْلَه الخ..[1].

3ـ وعنه «عليه السلام»:

---

(1) نهج البلاغة (بشرح عبده) الخطبة القاصعة، رقم 187 و (ط دار الذخائر، رقم 192) ج2 ص146.

بَعَثَه والنَّاسُ ضُلَّالٌ فِي حَيْرَةٍ، وحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ، قَدِ اسْتَهْوَتْهُمُ الأَهْوَاءُ، واسْتَزَلَّتْهُمُ الْكِبْرِيَاءُ، واسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ، حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنَ الأَمْرِ، وبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ الخ..»[1].

3 ـ وعنه «عليه السلام»:

إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً «صلى الله عليه وآله» نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وأَمِيناً عَلَى التَّنْزِيلِ، وأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ، وفِي شَرِّ دَارٍ، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ، وحَيَّاتٍ صُمٍّ، تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ، وتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ، وتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ، الأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ، والآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ[2].

وثمة آيات أخرى، ونصوص كثيرة تدخل في هذا السياق. ولكننا نكتفي بما ذكرناه..

إيضاحات:

النتائق ـ جمع نتيقة ـ: المرتفعات.

المدر: التراب الملبّد.

(1) نهج البلاغة (بشرح عبده) الخطبة رقم 91 و (ط دار الذخائر، رقم 95) ج1 ص186.

(2) نهج البلاغة (بشرح عبده) الخطبة رقم 25 و (ط دار الذخائر، رقم 26) ج1 ص66.

وشلة: أي يتحلب ماؤها على شكل قطرات غير متصلة.

الخف: للبعير والنعامة بمنزلة الحافر للفرس وغيرها..

الظلف: ظفر كل ما اجتر، وهو البقرة، والشاة، والظبي ونحوها.. وهو كالحافر للفرس، والخف للبعير.

الأعطاف ـ جمع عطف ـ: وهو الجانب من لدن الرأس إلى الورك.

الإنتجاع: طلب الكلأ في مواضعه، ومساقط الغيث.

مفاوز ـ جمع مفازة ـ: وهب المنجاة (أي يطلب النجاة بالخروج منها) والفلاة التي لا ماء فيها. والمهلكة.

بكة: هي مكة. سميت بكة لأنها تبك الناس، أي تجعلهم يزدحمون فيها.

بوأه منزلاً: هيأه، ومكن له فيه.

العاكف: المقيم.

الباد: المقيم بالبادية، مقابل الحضري.. والصحراء.

الإلحاد: الميل والعدول عن الشيء.

منيخون: مقيمون.

الجشب: الطعام الغليظ.

معصوبة: مشدودة.

دمثة: لا تصلح للنبات والرعي.

قفار: الأراضي التي لا نبات فيها، ولا ماء.

سحيق: بعيد.

المَثَابَ: الموضع الذي يرجع إليه الناس بعد ذهابهم عنه.

المطلوب من مكة:

عرفنا طرفاً من أحوال مكة، وما تعاني منه..

ولكن مراجعة النصوص الإسلامية تعطي: أن الإسلام يريد منها ما لا يتوقعه أي مطلع على هذا الواقع الصعب والمرير..

أولاً: المعيشة في مكة:

فقد ظهر: أن المعيشة في مكة صعبة للغاية، ولكنه تعالى يريد لهذا البلد الفاقد لجميع مقومات الحياة، وما يمكن أن يفيد في التغلب على مشاكلها، وإزاحة عللها.. أن يكون مصدراً للحياة، وصانعاً لها بأرقى مراتبها، وأسمى مكوناتها، المغمورة بالبهجة الطافحة بالسعادة.

إنه يريد لهذا البلد، الذي هو في أوعـر بقاع الأرض حجراً، وهو أقل الأمكنة تراباً في جميع بقاع الدنيا التي ترتفع عن مستوى مياه البحار.. وإذا كان هـذا البلد لا مياه فيه، حتى إن عيونه وشـلة، لا تعطي إلا قطرة بعد قطرة، وهي أيضاً كدرة.. وإذا كانت أوديته ضيقة، وكانت جباله خشنة، ورماله دمثة لا تصلح للإنبات.. ولا يزكوا فيه خف ولا حافر ولا ظلف.. فإن الحياة فيه ستكون في منتهى الصعوبة. وسينفر الناس حتى من النزول فيه، فضلاً عن اختياره موضعاً للسكنى.

ولكن الله تعالى يريد مـن الناس أن يقصدوا هذا البلد، ويعـودوا إليه مرة بعـد أخرى، ويـريد أن «تَهْوِي إِلَيْه ثِمَارُ الأَفْئِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ،

ومَهَاوِي فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ، وجَزَائِرِ بِحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ، حَتَّى يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلًا، يُهَلِّلُونَ للهِ حَوْلَه»[1].

ويريد لهـذا البلد الذي هـو أقـل نتائق الدنيا تراباً، ملبداً مستقراً (لا يستقر في مكان، بل تتداوله الرياح من موضع إلى موضع)، فهو لا يصلح للزراعة، وإذا كان لا مياه فيه، فلا يصلح للإنبات، بل هي أيضاً كدرة، لا تصلح للشرب، بل هي تنذر بالأوبئة الكاسحة، والأمراض القاتلة، والموت البطيء، والعيش الرديء، غير الهنيء.. ولكن الله تعالى يريد أن يرزق أهله من الثمرات، وأن تجبى إليه ثمرات كل شيء.

قال تعالى على لسـان إبراهيم «عليه السلام»: ﴿**إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**﴾[2].

ويقـول تعالى: ﴿**أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آَمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا**﴾[3].

وهو يريد لهذا البلد، الذي لا يجد فيه الإنسان أي نوع من أنواع الأنس والجمام والراحة، حتى إن أثر التراب لا يوجد فيه، إذ إن جباله خشنة، وحجارته وعرة، وأوديته ضيقة، ورماله دمثة، وليس فيه أنهار ولا ينابيع ولا أشجار

(1) نهج البلاغة الخطبة القاصعة الرقم 187.

(2) الآية 37 من سورة إبراهيم.

(3) الآية 57 من سورة القصص.

وارفـة الظلال. يريد الله لهذا البلد أن يكـون مصدر بهجة وأنس، وراحة للروح والنفس..

كما أن قرى هذه البلد منقطعة، يشعر الإنسان معها بالغربة والوحدة، والوحشة، ولا يحس بالسكينة أو الطمأنينة، وهي لا تصلح لإقامة أي نوع من التشارك المفيد في إبعاد الشعور بالمعونة، والتعارف والتآلف.. فضلاً عن الحفظ، والنصر، والقوة، وما إلى ذلك..

إنه يريد أن يجعل هذا البلد الذي لا يرجو الناظر إليه أن يجد فيه نفعاً له ـ يريد أن يجعله ذا منافع يرغب بها الناس، وأن يأتوه من كل فج وعميق من أجلها ـ فقد قال تعالى: **﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾**[1].

ثانياً: العلم والثقافة:

إنه يريد لهذا البلد الفاقد العلم، والمعرفة، والثقافة بصورة مرعبة، مع أن أهـل مكة هم رأس العـرب، فما بالهم يقـول عنهم علي «عليه السلام»، وعن سائر سكان المنطقة من حولهم:

إنهم كانوا حين بعثة النبي «صلى الله عليه وآله» فِي زَلْزَالٍ مِنَ الأَمْرِ، وبَلَاءٍ

(1) الآية 27 و28 من سورة الحج.

مِنَ الْجَهْلِ؟!

ويقول: اسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ.

ويقول: بَعَثَهُ والنَّاسُ ضُلَّالٌ فِي حَيْرَةٍ، وحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ.

والله تعالى يريده منارة للعلم والهداية للبشرية جمعاء إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿**وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ**﴾[1].

ويريد الله تعالى لسكان هذا البلد: أن تترقى معارفهم، وأن تصفو نواياهم، إلى الحد الذي يصبحون فيه من الشاكرين، وممن يرجى لهم أن يبلغوا أعلى المراتب الشريفة.

وبعد أن كان هذا البلد بؤرة للأضاليل، والشبهات والأباطيل، يريد أن يكون واضح الدلالات، وأن تكون فيه آيات بينات تهدي إلى أنبياء الله، وجهودهم، وجهادهم، قال تعالى: ﴿**فِيهِ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ**﴾[2].

وإذا كان الله بعثه إلى هؤلاء الناس الذين كانوا على شر دين، وفي شر دار، وإذا كان عامة أهل مكة مشركين، ودعاة لعبادة الأصنام، فإنه تعالى يريد أن يجعل من بلده هذا منطلقاً للتوحيد الخالص، ومنارة للإيمان الصحيح بعد أن كان موئلاً للشرك، بما فيه من عفنٍ، ومن عمى وضلال، ويريد أن يحوله إلى مجاهد في سبيل الله، بدلاً من أن يكون محارباً لأنبياء الله، ويقتل

(1) الآية 96 و97 من سورة آل عمران.

(2) الآية 97 من سورة آل عمران.

الأخيار، ويقطع الأرحام، ويقتحم العظائم، ويرتكب الجرائم والمآثم!!

ثالثاً: الأخلاق والقيم:

ويريد لهذا البلد الذي ليس فيه قيم، ولا أخلاق فاضلة. ولا ينتج سوى الشر والفساد في البلاد، والظلم والعدوان على العباد، وليس فيه كرم، ولا شمم، بل هو متمحض في الصد عن المثل والقيم.. بل إن من يعتبرهم الناس كبار القوم، وينقادون لهم، يتعاهدون فيما بينهم على التناصر في الظلم والعدوان، ويغمسون أيديهم في الدم تأكيداً لعهدهم هذا، على مثل هذه الخزيات حتى سموا لعقة الدم.

ولكن كان هناك حلف آخر، قام به بنو هاشم، تحالفوا فيه على التناصر في الحق، وتعاهدوا على نصرة المظلوم، وقد غمسوا أيديهم في الطيب، فسمي حلفهم بـ «حلف المطيبين».

يريد الله تعالى لهذا البلد: أن يكون المنطلق للقيم، والمثل العليا، كما يكون مركز لبث أصفى المعارف وأصحَّها للعالم بأسره.

رابعاً: الحالة الإجتماعية:

ويريد لهذا البلد الذي لا يأمن الضعيف فيه على نفسه، وماله، وحتى على عرضه المملوء بالخوف والرعب ـ يريد ـ أن يجعله حرماً آمناً إلى يوم القيامة، حتى إن أحداً لو ارتكب جريمة، ودخل إلى الحرم لم يقم عليه الحد، بل يُضَيَّق عليه في المأكل والمشرب حتى يخرج منه.

إنه تعالى يريد لهذا البلد الذي يرفض أكثر أهله الانقياد لله، ويأبون

الاعتراف بحاكميته ـ يريد ـ أن يجعل نفس الحضور فيه مدعاة للرغبة بعبادة الله، بل بأن تترقى هذه العبادة حتى تتجسد في كل جارحة، وعلى كل مظاهر وجود الإنسان العابد، حتى يصبح المصلي إنساناً إلهياً خالصاً من أية شائبة، ولذا قال إبراهيم «عليه السلام»: ﴿**رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾[1].

ويريد لهذا البلد الذي ملأه أعداء الله تعالى برجسهم: أن يصبح المطهر من كل رجس، في مختلف بقاعه للطائفين، والقائمين، والركع السجود.

ويريد أن يكون بيت الله في مكة مباركاً، يعطي النماء والزيادة في ظل رضا الله سبحانه بعد أن كانت الأمور تزداد سوءاً في ظل النقص والحرمان الذي يتسبب به المفسدون من أهل الشرك والطغيان.

وبعد أن كان الناس يتفرقون عن هذا البلد، بالرغم من وجود الكعبة، البيت الحرام فيه، يريد الله له أن يكون مجمعاً للناس ليكونوا جميعاً في حضرته سواسية، كأسنان المشط، وعلى نسق واحد، وفي جو واحد، هو جو العبودية والطاعة له سبحانه، والطلب منه، والاستعانة به، والتوكل عليه. قال تعالى: ﴿**جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ**﴾[2].

وبعد أن كانت الهيمنة والحاكمية في هذا البلد هي للطواغيت والجبارين، الذين يميزون أنفسهم على سائر الناس بغير وجه حق، يريد الله تعالى: أن يعيش الناس في هذا البلد معنى العدالة والمساواة، والأخوة ويريد أن يقضي

---

(1) الآية 37 من سورة إبراهيم.

(2) الآية 97 من سورة المائدة.

على الظلم فيه، مهما صغر في أعين الناس.. قال تعالى عن المسجد الحرام: ﴿**الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾[1].

وبعد أن كان الناس في حيرة الضلالة، وهم في زلزال من الأمر، فإنه تعالى يريد لهم أن يكونوا على بصيرة من أمرهم، وعلى يقين من مصائرهم، وعلى ثقة بربهم.

وإذا كانوا حاطبين في فتنة، فإنه يريد لهم أن يعيشوا في واحة تعاون وتعاضد، وسكينة، وسلام، وفي حب ووئام وانسجام.

وإذا كانت الأهواء قد استهوتهم، وهيمنت عليهم الأخلاق الذميمة، وظهرت فيها أمراضها وأعراضها، حيث «اسْتَزَلَّتْهُمُ الْكِبْرِيَاءُ، واسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ»، فإنه يريد أن يطهر نفوسهم، ويهذب أخلاقهم، ويصلح طبائعهم، ويستنهض فطرتهم، ويثير عقولهم، وينزع الأغشية عن أبصارهم، ويفتح أبواب أفهامهم.. ليعيشوا الحياة كما يريد الله تعالى لهم أن يعيشوها، ولينظروا إليها بنظرة إلهية، صافية، لا بنظرة شيطانية، تتحكم بها الأهواء.

وإذا كانوا أهل مكة على شر دين، فإنه تعالى بعث إليهم رسوله الأعظم، لينقلهم إلى خير الأديان، وهدى الرحمان.

وإذا كانوا يشربون الكدر، ويأكلون الجشب، فإنه يريد أن يجبى إلى بلدهم

---

(1) الآية 25 من سورة الحج.

ثمرات كل شيء.

وإذا كانت الأصنام فيه منصوبة، فإنه يريد أن يستبدل بكل ما يهدي إلى عبادة الواحد الأحد، والفرد الصمد.

وإذا كانت الآثام مشدودة بأهل هذا البلد، فإنه يريد أن يكون بلد تزكية النفوس، وبه تقبل التوبات، وتغفر الخطيئات.

وإذا كان هذا البلد مستباحاً من قبل المجرمين، والمفسدين، فإنه تعالى يريده بلد آمناً حتى حين يتخطف الناس من حولهم.

خلاصة وبيان:

ظهر مما تقدم: أن مكة في موقعها الجغرافي وفي إمكاناتها الطبيعية، مع خشونة جبالها، وضيق أوديتها، وقلة التراب الثابت والمتلبد فيها، وقلة أمطارها، ومع شح مياهها، وكدورتها، ومع كونها وادياً غير ذي زرع، ومع شيوع الظلم والفساد فيها، ومع التحلل الأخلاقي الهائل فيها، وضمور السمات الإنسانية، وفشل العلاقات الاجتماعية، وتحكم الطغاة والظلمة بأهلها، وبقرارهم، وبمسيرهم ومسارهم..

ومع هيمنة الجهل، وأحكام الجاهلية على الأحوال فيها.

ومع فقدان القيم..

ومع تمرد أهلها على الله سبحانه، واتخاذ سبيل الغي سبيلاً، ونبذ الهدى والرشد فيها..

ومع مناوأتها الشديدة للحق وأهله، وللخير والسداد والصلاح..

مع كل هذه الأحوال، والأوضاع المريرة، التي لا تنذر إلا بالشر، كيف يمكن للناس أن تهفوا قلوبهم إليها، وأن يسعوا للسكنى والمكث فيها؟! وليس فيها إلا الموت، وإلا الأذايا والبلايا، والحرمان؟! فكيف إذا كانت حياتهم ستكون بين حجارة خشن، وحيَّات صم، التي يقال: إنها أخبث أنواع الحيات؟!

ولكن الله تعالى يريد أن يصنع من هذا البلد الفاقد لكل شيء، واجداً لكل شيء، ليكون نموذجاً فذاً وفريداً، ومثلاً رائداً، يجسد أهداف الإسلام، وإنجازه الهائل، في معجزة كبرى لكل من تفكر وتدبر، وتأمل وتبصر، ولتتجلى فيه آيات الله البينات، وخوارق العادات، في مجال بناء الحياة والإنسان.

وقد جاء القسم بهذا البلد، ليدل على هذه الحقيقة، وليشير إلى أن ذلك إنما يتم بعين الله، وفي رعايته، وهدايته، ليكون هذا البلد الفذ الرائع في طاقاته الإيمانية، والزاخر بالمعطيات الفضلى في إخلاص العبادة له تعالى، ورفض جميع أنواع الشرك والعبادة لغيره تعالى.

وأن يكون هو الأغنى والأغزر في روافده العاطفية، المتميز في رخائه الاقتصادي.

ثم أن يكون بلد الرشاد والهداية، والمثل والقيم، والأخلاق الحميدة، والسير الرشيدة، والإنجازات الفريدة، والمفيدة، والمواقف المجيدة.

إن أولياؤه إلا المتقون:

ومن الواضح: أن تحقيق هذه الأهداف لا يأتي عن طريق التصرف التكويني

الإلهي القاهر، والقادر على أن يغيِّر الأحوال، ويتصرف في النفوس والقلوب والعقول، ويقهر على التزام سلوكيات بعينها.. بل يريده الله أن يأتي بصورة طبيعية، ووفق السنن الإلهية، انطلاقاً من خلال ما يختاره الإنسان نفسه في المقامات المختلفة من دون جبر أو اكراه.

هذه الأهداف الإلهية، تحتاج في تحقيقها، وإيصال الأمة إليها إلى الرعاية الإلهية، والهداية الربانية.. وذلك لا يكون في مثل هذه المهمات الكبيرة والخطيرة إلا على أيدي الأنبياء وأوصيائهم، ومن يرتضونه ويختارونه من الأولياء والصلحاء، حيث لا يختارون إلا الرجل المناسب للموقع المناسب..

وقد صرح القرآن الكريم: بأنه لا يحق للمنحرفين والضالين الذين يعادون أولياء الله، ويصدونهم عن المسجد الحرام ـ لا يحق لهم ـ تولي شؤون المسجد الحرام.. ولا ولاية لهم عليه..

بل الولاية على البيت منحصرة بالمتقين، لا تتجاوزهم إلى غيرهم، لأنهم الذين يسهمون في تمكين مكة من القيام بدورها الطبيعي والطليعي في نشر المعرفة الصحيحة، وبناء الشخصية الإنسانية بناء سلياً وقوياً.

الفصل الثالث:

لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ

لَقَدْ خَلَقْنَا:

1 ـ بالنسبة لقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾[1] نقول:

اللام في قوله: ﴿**لَقَدْ**﴾ واقعة في جواب الأقسام الأربعة المتقدمة، فخلق الإنسان في أحسن تقويم هو الباعث على إنشاء هذه الأقسام، ويراد إثباته بها.

2 ـ ويلاحظ: أنه في سورة التين أقسم بهذا البلد، ولكنه في سورة البلد لم يقسم به، فقد يقال: إن ما يريد اثباته في سورة البلد، هو أن الإنسان خلق في كبد ومشقة.. ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾[2]. وهذا لا يصل في أهميته إلى حد خلق الإنسان في أحسن تقويم، الذي جعل مقدمة لإثبات البعث والحساب. وهو الأمر العقائدي المهم جداً..

لأجل ذلك نلاحظ: أنه أقسم في سورة التين بهذا البلد الأمين، وهـو مكة، لأن ثمة حاجة لإثبات خلق الإنسان في أحسن تقويم مقدمة لما بعده.

وشارف على القسم بهذا البلد في سورة البلد، لإظهار أهمية وعظمة رسول الله «صلى الله عليه وآله».

---

(1) الآية 4 من سورة التين.

(2) الآية 4 من سورة البلد.

وقد قلنا فيما سبق: إن عدم القسم بمكة في سورة البلد إنما هو لأن الحديث في السورة عن سلوك الإنسان في حياته الدنيا، وحثُّه على الإنقياد لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، والالتزام بما جاء به..

فالمطلوب: هو تعظيم الرسول «صلى الله عليه وآله» وإجلاله، وبيان حاله من قداسة ومقام عند الله.. ليكون ذلك داعياً إلى الانقياد والالتزام بأوامره.

3 ـ بالنسبة لكلمة «قد» نقول:

إذا دخلت «قد» على الماضي، فهي حرف تحقيق. وإذا دخلت على الفعل المضارع، فهي حرف تقليل.

وقد يراد بها: إظهار التوقع لما لا يقين بحدوثه، كقولك: قد يقدم المسافر.

4 ـ بالنسبة لقوله تعالى: ﴿ **خَلَقْنَا**﴾ نقول:

نحتاج إلى الحديث عن هذا الخلق في عدة اتجاهات، فلاحظ ما يلي:

ما المراد بالخلق؟!:

لقد ذكر القرآن الكريم الخلق في العديد من الآيات..

ويفهم منها: أن للخلق العديد من المعاني:

أولاً: قد يراد بالخلق الابداع، والاخراج من العدم على غير مثال، قال تعالى: ﴿**خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[1].

(1) الآية 164من سورة البقرة.

وقال: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[1].

والإبداع: هو خلق الشيء واختراعه على غير مثال.

ثانياً: الخلق: هو التصوير، وإعطاء الهيئة للمادة، قال تعالى: حكاية عن عيسى «عليه السلام»: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾[3].

فالتخليق هو التشكيل والتصوير، وقد أثبتت الدراسات: أن المضغة لا تتشكل فيها بعض الأعضاء بصورة تامة، بل يتأخر بعضها ليتشكل في مرحلة لاحقة.

ثالثاً: يطلق الخلق أيضاً على النشآت التطويرية المتعاقبة، قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾[5].

---

(1) الآية 117من سورة البقرة والآية 101 من سورة الانعام.

(2) الآية 49 من سورة آل عمران.

(3) الآية 5 من سورة الحج.

(4) الآية 6 من سورة الزمر.

(5) الآية 7 من سورة السجدة.

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[1].

فأطلق على هذه النشآت المختلفة في حالاتها وخصوصياتها: أنها خلق. وهو خلق تطويري، ونقل من مرحلة إلى مرحلة أرقى منها.

وهذه ليست معان متضادة، بل هي متكاملة ومنسجمة، لدلالتها في كل مرحلة على معنى الإيجاد، الذي قد يكون من العدم، أو إيجاد الصورة للمادة، أو إيجاد حالات وخصوصيات لم تكن.

وقوله: بدأ خلق الإنسان من طين شاهد صدق على هذا التطوير في الخلق، والانتقال من مرحلة إلى أخرى.

كما أن آية مراحل خلق الإنسان من طين، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، تدل على ذلك أيضاً.

خَلَقْنَا:

وقد قال تعالى: ﴿**خَلَقْنَا**﴾، ولم يقل: خلقت.

ولعل سبب ذلك: أنه تعالى يتحدث هنا من موقع الكرامة والعزة والعظمة، لأن المقام يفرض ذلك، لأنه يخاطب المشركين، الذين يعبدون أصناماً

(1) الآية 12 ـ 14 من سورة المؤمنون.

عاجزة، لا تبصر ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع، ولا تعقل، فلا غرو أن يتحدث الخالق البارئ المصور الحي القيوم الخ.. عن نفسه، بما هو خالق، من موقع الكبرياء والعظمة، والعزة والكرامة.

وأما ما قد يثيره أهل الزيغ من التعدد في الخالق، ليكون هذا الخالق قد أبدع المادة، وذاك أعطى الصور والاشكال، أو أن هذا تولى مرحلة من الخلق، وغيره تولى مرحلة أخرى، فهو كلام تافه وسخيف.

أولاً: لأن التوحيد ثابت بالإدلة العقلية القاطعة، ولا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه.. فلا قيمة لهذه الأراجيف، والأباطيل والترهات.

ثانياً: هناك آيات تصرح: بأن الله تعالى هو الخالق البارئ المصور، العزيز الجبار المتكبر، له الأسماء الحسنى، وتصرح: بأنه تعالى ينسب الخلق إلى نفسه بصيغة المفرد، وبأنه تعالى خالق كل شيء.

وهذا يدل على أن التعبير بخَلَقْنَا، قد أريد به إظهار معنى العزة والعظمة كما قلنا.

الإِنْسَانَ:

أما المراد بالإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، فهو هذا المخلوق البشري الذي خلقه الله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة الخ.. وهو الذي نراه، والذي هو عاقل مختار، لديه غرائز، وميول، ومشاعر، وهو يخطئ ويصيب، ويهتدي ويضل، ويطيع ويعصي، وغير ذلك..

نعم.. هذا هو المقصود بالإنسان المخلوق في أحسن تقويم، بغض النظر

عما يختاره من سلوك، وما يصدر عنه من أفعال، وعن موقعه، وعن مقامه، سواء أكان نبياً، أو متمرداً شقياً..

في أحسن تقويم، كيف؟! ولماذا؟!:

ثم إن ما ذكرته الآية، من أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم يحتاج إلى بيان.. فقد يقال: لو كان الإنسان الذي هو في أحسن تقويم كاملاً في كل شيء، فلماذا إذن يولد فاقد العقل والتمييز، ضعيف القوى، بالغ العجز لا يستطيع أن يتحرز حتى من نسمات الهواء، ولا أن يدفع عن نفسه أضعف المخلوقات في الأرض، أو في السماء؟!

ولماذا إذن يولد بعض الناس مشوهاً، أو ناقصاً بعض الأعضاء، أو يكون قبيح الصورة، أو لديه قصور في بعض قدراته ومؤهلاته؟!

ونجيب:

بأن هذا المخلوق من التراب البادي البشرة، يحتاج لكي يكون إنساناً إلى أن تتبلور فيه الصفات الإنسانية التي يتميز بها عن سائر المخلوقات.. ومن هذه الصفات: عقله، اختياره، عمله الصالح، جهاده، أخلاقه الفاضلة، علمه، طاعته لله، بالإضافة إلى أن المطلوب أن يكون رحيماً، صادقاً، عفيفاً، كريماً، حليماً، عطوفاً، تقياً، وفياً، شجاعاً، محباً للخير وأهله. لا يحقد، ولا يحسد، ولا يجبن، ولا يبخل، ولا يجهل ولا.. ولا.. إلى آخر ما هنالك من صفات وسمات، لو حصل عليها بجدِّه وكدِّه، واستفاد منها بتوظيفها في حياته العملية لبلغ أعلى الدرجات، ونال أسمى المقامات..

وهذه الصفات بالذات، هي التي أتحفنا بها الأنبياء والأئمة، والأولياء، والأصفياء، والقادة الشهداء، وخيرة أهل الأرض من العلماء، والأتقياء.

وإن نظرة تأمل في سيرة الإنسان في الحياة.. تعطي ما يلي:

1 ـ إن الإنسان حين يولد تكون لديه استعدادات لنيل طاقات وقدرات، وصفات، وميزات، وكمالات مختلفة، يحصل على بعضها بصورة تدريجية، فمنها مثلاً: العقل، والتمييز، والمعارف، والعلوم، ويحتاج إلى تحصيل القدرة على النطق، واستعمال اللغات ليتفاعل مع محيطه بصورة سليمة وقويمة.. ويحتاج إلى القوة البدنية بعد الضعف، وإلى الطاقة الجنسية، وإلى الشعور بالكرامة والشهامة، وإلى السخاء والوفاء، وإلى القدرة بدلاً عن العجز.. ويحتاج إلى المشاعر والأحاسيس، والانفعالات، فيحب ويبغض.

وهو يقبل ويرفض، ويرغب ويمل، ويُقْبِل ويُعرض، ويجوع ويعطش، ويتألم ويحزن، ويرضى ويغضب.. كما أنه قد يحسد ويحقد، ويثور ويهدأ، ويضحك ويبكي، وما إلى ذلك.

ويبدأ منذ ولادته بالحصول على هذه الأمور وسواها بصورة تدريجية.. وقد يستغرق حصوله على مطلوبه في بعضها إلى سنوات كثيرة، فقد روي مثلاً: أن الإنسان إنما يتم عقله إذا بلغ الثامنة والعشرين من عمره[1].

---

(1) راجع: الكافي ج6 ص46 وج7 ص69 وتهذيب الأحكام ج8 ص111 وج9 ص183 وروضة المتقين ج6 ص372 وج8 ص652 وج11 ص66 والوافي ج23 ص1391 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج19 ص364 وج21 ص461

2 ـ قـد يحتاج في حصـوله على بعض هـذه المزايا والخصوصيات إلى مساعدات من الأقرباء، وغيرهم في نطاق تربيتهم الصالحة له، فكما يدربونه على النطق مثلاً، كذلك هم ومعهم وبعدهم المعلمون، والأساتذة، والعلماء، ويغرسـون في ضميره حب الخير، وفي قلبه رحمـة الضعيف، والعطف على الفقير المحتاج، وينشئونه على الشهامة، والشعور بالكرامة، ويعودونه على العطاء والسخاء، ويحببونه بكل ما هو خير وصلاح، وفلاح، ويجعلونه يتعلق ويلتزم بالمثل، والمبادئ والقيم.. ويكرِّهون إليه الرذائل، ويحبِّبون إليه الفضائل وإنصاف الناس، ويسهِّلون عليه الاعتراف بالخطأ، والتراجع عنه، وما إلى ذلك..

كما ويعوِّدونه على عبادة الله والإخلاص له، ويهيِّئون له مناخات العبادة، والدعاء والتسبيح، واللجوء إليه تعالى..

3 ـ ومن هذه المزايا والكمالات ما يحتاج لبقائه إلى جهد دائب، وإلى المواظبة على بعض العبادات، والالتزامات الشرعية الأخلاقية، أو الاجتماعية والإنسانية، وسواها..

كما أن بقاء بعضها قد يحتاج إلى تجنُّب معاصيه، حتى لا توجب تلك المعاصي ضعف المناعة لديه، ثم تكون النتيجة هي تفتت وضمور وضعف

و (الإسلامية) ج13 ص431 وج15 ص183 ومرآة العقول ج21 ص81 وج23 ص110 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج12 ص73.

هذه السمات والصفات، والملكات.. ويفقد ـ من ثم ـ كمالات عزيزة عليه، وهي من أثمن ما لديه، وما هو بأشد الحاجة إليه، لكي يتنامى ويرتقي في مدارج الكرامة والزلفى عند الله..

نقول هذا، لأن الإنسان قد يحصل على بعض الصفات والسمات بعمله وجهده، وباختياره وكدِّه ، أو من خلال مساعدة الآخرين له.. ولكنه يفرط فيها، ولا يحافظ عليها، ولا يتعاهدها بالتقوية، والتغذية، فتضمر وتضعف، وربما كان بعضها مما يكون داؤه النسيان، كالعلوم والمعارف، فإذا لم يهتم بتذكرها، ولم يحاول إثارتها والاستفادة منها، فيؤدي بها الخمول إلى الأفول، والعودة إلى الإرتماء في أحضان المجهول.

4 ـ فإذا كانت الأمور والكمالات التي أراد الله لعباده أن يسعوا إليها، ويحصلوا عليها ليست حاصلة له بالفعل قبل حصول السعي والطلب..

فذلك يعني: أن المراد بخلق الإنسان في أحسن تقويم: ليس أنه أوصله إلى أقصى درجات الكمال من لحظة خلقه.. لاسيما مع ما نلاحظه، من أن آيات خلق الإنسان قد تضمنت معنى التكامل على مراحل، في القدرات الإدراكية، وفي قواه الجسدية، وفي المشاعر، وفي الاستعدادات والكمالات..

كما أن بعض ما يحصل عليه قابل للتضييع، والإتلاف، والتلاشي التدريجي.

5 ـ فالمراد بـ ﴿**أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾: أن هذا المخلوق الذي هو من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة.. والذي إن حصل على هذه الكمالات، والخصائص، والاستعدادات، ونال هذه الكمالات جسداً وروحاً وعقلاً، وغرائز ومشاعر.. فإنه يكون أقصى، وأحسن، وأبدع،

وأرقى الموجودات.. ويستطيع أن يعرج إلى السماوات، إلى سدرة المنتهى.. وتطوى له الأرض، ويمشي على الماء، ويمكنه أن يحصل على قدرات أخرى هائلة، كشفاء المرضى، بل وإحياء الموتى، فضلاً عن قدرته على اختراع الأعاجيب. وقد يصل إلى حد التصرف ببعض الكائنات، كما هو الحال في نبينا الأعظم «صلى الله عليه وآله» وسائر الأنبياء والأوصياء، ولاسيما أئمتنا الأطهار «صلوات الله عليهم» وسائر الأخيار والأبرار.

وحسب القول المنسوب إلى أمير المؤمنين «عليه السلام»:

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر[1]

وعن الإمام علي «عليه السلام» أنه قال: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[2].

نقول هذا.. لأن أصل الإنسان من التراب، ثم النطفة، ثم العلقة الخ.. وقد خلقه تعالى أطواراً.. قال سبحانه: ﴿**مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ**

(1) منازل الآخرة للقمي ص13 عن الديوان المنسوب للإمام علي (جمع وترتيب عبد العزيز الكرم) ص57.

(2) غوالي اللآلي ج4 ص102 ح149 والجواهر السنية للحر العاملي ص116 وبحار الأنوار ج2 ص32 وج58 ص99 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج20 ص292 ومتشابه القرآن ومختلفه لابن شهرآشوب ج1 ص44 ومشارق أنوار اليقين ص297 وعيون الحكم والمواعظ ص430.

خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾[1].

وقال: ﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً﴾[2].

وله هذه العناصر، والمكونات، في حين أن البيئة التي يعيش فيها زاخرة بالمغريات، وما يثير الغرائز والشهوات، حافلة بالعوائق والمثبطات، وكثرة المشكلات، فهو يخطئ ويصيب، ويعلم ويجهل، ويضل ويهتدي، ولا يؤدي ما عليه من واجبات.. من أجل ذلك كله تحدثت الآية المباركة عن المطيعين من المؤمنين، وأن لهم أجراً غير ممنون، وعن الضالين العاصين، وأنهم يردون أسفل سافلين.

وسيأتي المزيد من التوضيح لهذه الآيات المباركة أيضاً.

الأحكام الإسلامية:

إننا إذا ألقينا نظرة على واقع النصوص المتضمنة للأوامر والزواجر، فسنجد:

1 ـ أن في الإسلام أحكاماً إلزامية، مثل: الواجب والحرام. وأحكاماً ليست إلزامية، مثل: المستحب، والمكروه والمباح.

وما هو إلزامي يكون بحيث لو تركه المكلف، وكان واجباً، أو فعله وكان حراماً لوقع في المحذور الكبير..

---

(1) الآيتان 13 و 14 من سورة نوح.

(2) الآية 17 من سورة نوح.

فسبب الإيجاب والتحريم: هو صون المكلف عن الوقوع في هذا المأزق الصعب، والمخالفة الخطيرة، التي لها تبعات عقابية، لأنها تسبب غضب الله تعالى عليه.

وكثيراً ما يأتي هذا الإلزام في الموارد التي يندفع إليها الإنسان غريزياً، أو أهوائياً، أو شهوانياً، أو انفعالياً، كالغضب الشديد الذي يدعو إلى تجاوز الحدود، وركوب المخاطر، فإذا وجد الإنسان أن الامعان في المخاطرة قد يجعله مستحقاً للعقوبة الإلهية لكونه أصبح في دائرة الغضب الإلهي، فإنه سوف يتراجع ويتواضع ليبحث عن مخرج يجنبه هذا الغضب.

2 ـ بالنسبة لما عدا الأحكام الإلزامية، كالمستحب والمكروه نقول:

إن كثيراً من موارده ناظر إلى نيل المثوبات على الفعل في المستحب، أو قلة المثوبة في المكروه.. بالإضافة إلى أن كثيراً من الأوامر غير الإلزامية لا يعدو كونه إرشاداً إلى منافع ذلك المأمور به في المستحب، والمضار في المكروه.

ومن ذلك: الأوامر التي ترتبط بالأطعمة، والأشربة، والزراعة، والتعامل مع الآخرين، كالعائلة، والأقارب، وغيرهم.

وكذلك ما يرتبط بآداب الحمام، والزي والتجمل، وغير ذلك كثير، وكثير جداً..

وقد تكون هذه الأوامر تهدف إلى صيانة الجسد، أو الخلق، أو الكرامة، من أن تتعرض لأي ضعف أو وهن.

أو أنها ترتبط بأحوال النفس، والتربية والمشاعر، وصيانة الكمالات،

وحفظ القدرات.

3 ـ والمستحبات التي يطلب التعبد والانقياد، وطلب المثوبة، مثل: الصلاة، والصوم، والإستغفار، وقراءة القرآن.. فيراد بها: تربية الروح، والنفس، وفي بعضها يطلب إيقاظ الضمير، والوجدان، والسمو بهذا الإنسان إلى مواضع الرضا والقرب والزلفى عند الله.

فالأحكام الإلزامية تصون الإنسان من المزالق والمهالك، والمستحبات وسواها هي التي ترتقي بالإنسان، وتنقله من مقام إلى مقام.

4 ـ قد ظهر مما تقدم: أن المناهي التي لا تصل إلى حد الإلزام.. قد تكون مما يطلب ثوابه، ولكن اقترانها بأمر بعينه يوجب قلة ثوابها، كالصلاة في الحمام، وفي أعطان الابل..

وبعضها، كتلك التي تطلب منافعها، مثل بعض المآكل، وسواها، فإن النهي عنها، إنما هو للإرشاد إلى بعض ما لها من سلبيات، محتملة الحدوث، أو قليلة الحدوث، ولا يبالي أكثر الناس به لقلة حدوثه، أو لأجل ضآلة ما يحدث منه.. وإن كان تراكمه، يفضي إلى ما لا تحمد عقباه أحياناً..

ومن ذلك على سبيل المثال: النهي عن الإكثار من أكل السمك، لأنه يوجب الفالج، وأمثال ذلك كثير.

5 ـ والملاحظة المهمة التي نحب لفت النظر إليها: هـو الكـثرة الهائلة للمستحبات، وكثرة أنواعها، بحيث يتعذر إحصاؤها، ولا يمكن لأحد أن يأتي بها جميعاً.

وحتى لـو أراد أن يأتي بها واحدة بعد الأخرى، فسيجد نفسه محرجاً

أمام النصوص التي تنص على أن بعض المستحبات لا حدَّ لاستحبابها..

كما في قول النبي «صلى الله عليه وآله» لأبي ذر، حين قال له: يا رسول الله، إنك أمرتني بالصلاة، فما الصلاة؟!

قال «صلى الله عليه وآله»: «خير موضوع، فمن شاء أقل، ومن شاء أكثر»[1]. فلو أراد أحد أن يصلي جميع ساعات عمره. مع إتيانه بسائر التكاليف الإلزامية، لكان يفعل أمراً مستحباً طول عمره، مع أنه لم يأت بمستحب آخر غير هذا المستحب.. فكيف نفسر ذلك؟!

وهكذا يقال بالنسبة للمستحبات المطلقة، كقراءة القرآن، والاستغفار، وقضاء حاجات المؤمنين؟!

---

(1) الخصال للصدوق ص523 ومعاني الأخبار ص333 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج5 ص248 و (الإسلامية) ج3 ص518 ومستدرك الوسائل ج3 ص43 و 47 والأمالي للطوسي ص539 ومكارم الأخلاق للطبرسي ص472 وبحار الأنوار ج74 ص70 وج79 ص307 و 308 ومستدرك سفينة البحار ج6 ص319 ومسند أحمد ج5 ص178 و 179 وج5 ص265 والمستدرك للحاكم ج2 ص597 ومجمع الزوائد ج1 ص159 و 160 وج8 ص210 وكنز العمال (ط مؤسسة الرسالة) ج1 ص485 وج8 ص13 وج16 ص131 وتاريخ مدينة دمشق ج23 ص277 وج59 ص335 وج67 ص98 وسير أعلام النبلاء ج2 ص62 وإرشاد القلوب ج1 ص139.

ونجيب:

بأن الله سبحانه يريد أن يجعل من تنوع هذه المستحبات سبباً للتيسير، وإفساح المجال أمام المكلف لكي يتخير منها ما يتلاءم مع طبيعة عمله، ومع مسؤولياته في الحياة، ومع ميوله، وإقبال نفسه وإدبارها..

فلو أراد صاحب الحانوت مثلاً أن يصلي طيلة الوقت في حانوته لم يتمكن من كسب ما يعتاش به..

ولكن الله تعالى جعل أمامه خيارات أخرى تتناسب مع طبيعة عيشه، إذ يمكنه أن يبيع ويشتري، ويسبح الله.. أو أن يكون حين ممارسته للبيع والشراء صائماً مثلاً.

كما أن للنفس الإنسانية إقبالاً وإدباراً.. فلعلها ـ أحياناً ـ لا تتفاعل مع الصلاة المستحبة، فيختار لها قراءة القرآن مثلاً، أو أي طاعة أخرى تقبل عليها نفسه.. فالله تعالى لا يريد أن يربك الناس، ولا أن يفرض عليهم لوناً واحداً من الطاعة. وهذا من اليسر الذي أشير إليه بقوله تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾[1].. لأنه يريدهم راغبين في العبادة، مشتاقين إلى الطاعة، متلذذين بها..

خلاصات وتوضيحات:

عرفنا فيما تقدم: أن الإنسان الذي يتحدث عنه الله تعالى في سورة التين هو هذا الموجود الذي نراه، الذي يعصي، ويطيع، ويفرح ويحزن، ويضحك

---

(1) الآية 185 من سورة البقرة.

ويبكي، ولديه عقل واختيار، وشهوات، وغرائز، ويحب، ويبغض، ويحسد ويحقد، ويسخو ويبخل، ويمشي على رجلين، وينظر بعينين، ويسمع بأذنين، ويأكل ويشرب، ويرضى ويغضب إلى آخر ما هنالك من صفات وحالات، وغرائز، وملكات.. وقد أطلقه في هذه الحياة ليستفيد من هذه العطايا الإلهية في نيل المقامات السامية، والمراتب العالية.

ولكن هذا الإنسان قد اختلفت حالاته، فكان منه المطيع، الساعي إلى رضا الله، الثابت القدم في إيمانه وفي التزاماته، ومنه العاصي المتمرد، وفريق آخر خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

والذين ساروا في خط الطاعة قد استطاع فريق منهم أن يكونوا أنبياء، ائتمنهم الله على شرايعه، وحملهم مسؤولية هداية البشر، وتربيتهم، وقيادتهم إلى الأهداف الكبرى السامية التي رسمها تعالى لهم.. وبالرغم من أنه تعالى خلقهم من تراب من نطفة، ثم من علقة الخ..

فإنه أراد لهم أن يواصلوا طي المراحل ليبلغ بعضهم سدرة المنتهى.. وقليل ما هم.

الإنسان والأهداف:

وإنما يكون هدف الإنسان هذه المقامات، لأن الهدف من خلقته من تراب ثم من نطفة الخ.. هو أن يواصل رُقيه حتى يبلغ هذه الدرجات أو يكاد..

وذلك لأن الهدف من الخلق له تأثيره الكبير في تحديد سمات، وصفات، وحالات، وطاقات المخلوق الذي يفترض فيه أن يصل إلى تلك الأهداف.

فالهدف من خلق الحجر، أو النوع الفلاني من الشـجر، أو الحيوان هو الذي يفرض أن تكون مكونات الحجر، أو الشجر، أو الحيوان هي كذا أو كذا، بنسب قد تتوافق وقد تختلف، فإذا وجد هذا المخلوق الذي هو الحجر، متوافقاً مع أهداف خلقه كان في أحسن تقويم.

وحين خلق الله تعالى الإنسان بما له من خصوصيات وحالات جسدية، ككونه يمشي على رجلين وله عينان، وأذنان، ويحتاج إلى الطعام والشراب، ويمرض، ويصح، ولديه قوى مختلفة.. وله جوارح ومكونات ظاهرة وباطنة مختلفة، وغير ذلك مما يقتضيه الهدف الأقصى.. فإنه يكون في أحسن تقويم من الناحية الجسدية..

وإذا اقتضى الهدف تجهيز هذا المخلوق بملكات وغرائز، وعقل، واختيار، وحالات نفسية، وأحاسيس، وعواطف ومشاعر.. وغير ذلك مما يحتاج إليه ليسهم في وصوله إلى ذلك الهدف الكبير، فإنه يكون في أحسن تقويم من هذه الناحية أيضاً..

ولكنه إن لم يحسن الاستفادة من كل هذه العطايا، وأخلد إلى الأرض، ولم يستطيع أن يرتقي إلى ما هو أسمى، وأبقى، وأطهر وأنقى، فإنه هو الذي يتحمل وزر هذا الإهمال.

وتعطيل العقل عن العمل، والمشاعر عن التأثير، والغرائز التي يراد لها أن تقوم بدور فاعل وإيجابي في حياة البشر، أمر مشاهد ومحسوس لدى الكثير من الناس.. وهو لا يختلف عن تعطيل اليدين، أو العينين، أو الأذنين عن العمل.. ولكن الخسائر الناجمة عن تعطيل العقل، والمشاعر، وسواها تكون

أكبر، وأخطر.

والأضر والأشر من التعطيل: استبدال الشيء بضده.. فيستبدل الشجاعة بالجبن، والرحمة بالقسوة، والكرم بالبخل، والوفاء بالخيانة، والعلم بالجهل، والهدى بالضلال، وغير ذلك مما أراد الله تعالى له أن يكون عنصراً فاعلاً في الوصول إلى الأهداف الكبرى، فيصبح هذا الاستبدال عائقاً، بل دافعاً للسير في الاتجاه المعاكس.

وبدلاً من أن تقوى وتنمو قابليات الرقي لديه، فإنه يكون هو السبب في دمارها وبوارها، وهو يفعل ذلك عن سابق علم وإصرار، وسوء اختيار.

فظهر بذلك: أنه ليس المراد بحسن التقويم: هو التناسق الجسدي، وجمال الصورة وحسب..

خَلَقْنَا لا خَلَقْتُ:

وقد قال تعالى: ﴿**خَلَقْنَا**﴾. ولم يقل خلقت الإنسان. ولم يقل: نخلق أيضاً.

ونحن نعلم: أن كلمة ﴿**خَلَقْنَا**﴾ فعل ماض، وأنه تعالى لا يقصد أنه خلق جميع البشر في السابق.

وإنما يريد أن يقول: إن هذا المخلوق من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، والذي يتواصل ويتكرر الخلق لأفراده، قد خلقناه في أحسن تقويم، لكي يصل إلى أسمى الأهداف.

فالمقصود بـ ﴿**خَلَقْنَا**﴾ مجرد بيان حقيقة خلقه، وما هي عليه من التقويم الأحسن الذي سوف يبقى مستمراً، ويكون هو المسؤول عن تضييع هذه

القدرات، حين لا يستفيد منها فيما يرضي الله، فلا دلالة لكلمة خلقنا على حصول ذلك في زمن مضى، وانقضى.

الفصل الرابع:

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلاَّ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ:

1 ـ ثم: حرف عطف، تفيد التراخي.. أي أن ما بعدها لا يقارن ما قبلها في الوقوع، ولا يأتي بعده بلا فصل، بل يكون بينهما فاصل زماني واسع.

والعطف بالفاء يفيد التعاقب بلا فصل.. أما العطف بالواو، فيفيد وقوع ما قبلها وما بعدها، من دون دلالة على الاقتران. ولا على التعاقب بلا فصل، أو مع فصل، بل قد يكون الثاني سابقاً على الأول زماناً.

2 ـ بعد ما تقدم نقول:

المراد بالتراخي الزماني في هذه الآية المباركة: أن الزمن المتمادي قد كشف حقيقة هذا الإنسان، وأنه لم يرد أن يوظف هذا التقويم الأحسن في الوصول إلى الأهداف الإلهية التي يريد الله له أن ينالها به من خلال تحريك هذه القدرات، والوسائل. بل هو قد عطلها، وأساء إليها.

رَدَدْنَاهُ:

قالوا: المراد بالرد: الإرجاع إلى ما كان قد تجاوزه سابقاً ليكون قوله: ﴿**أَسْفَلَ سَافِلِينَ**﴾ منصوباً بنزع الخافض أي إلى أسفل سافلين.

غير أننا نقول:

إن كلمة ﴿رَدَدْنَاهُ﴾ تتعدى إلى مفعولين، وإن لم يذكروها في عداد الأفعال التي لها هذه الخصوصية، وهي ـ كما في ألفية ابن مالك ـ الكلمات المذكورة في الأبيات التالية:

انصب بفعل القلب جزءي ابتدا أعني: رأى، خال، علمت، وجدا

ظن، حسبت، وزعمت، مع عد حجا، درى، وجعل اللذ كاعتقد

وهب، تعلم، والتي كصيرا أيضا بها انصب مبتدأ وخبرا

إلا إن قلنا: إن كلمة رد من الأفعال التي هي مثل صيَّر، وهي من أفعال التحويل.

ويشير إلى ما ذكرناه: أن الإنسان لم يكن في السابق في الأسفل لكي يرجعه الله إلى هذا الموضع، بل كان في أحسن تقويم..

غير أنه لما لم يعمل بما يريد الله جعله تعالى هو الأسفل، فيكون معنى رده: أنه جعله كذلك، وصيَّره.. لأن في هذه المخلوقات ما هو متسافل إلى أحط الدرجات والدركات، ويكون هذا الإنسان الذي رفض الإيمان والعمل الصالح يكون أحط، وأسفل من كل سافل.. وهذا غاية الخسران، وأعظم الخذلان..

ومما يشهد لاستعمال كلمة رد بمعنى جعل، أو صيَّر:

أولاً: قوله تعالى: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ**

إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾[1].

فالمفعول الأول هنا كلمة «كُمْ» في قوله: ﴿**يَرُدُّونَكُمْ**﴾، والمفعول الثاني هو قوله «كُفَّارَاً» أي يجعلونكم كذلك.

ثانياً: قال الشاعر:

رمى الحدثان نسوة آل حرب بمقدار سمدن له سموداً

فرد شعورهن السود بيضاً ورد وجوههن البيض سوداً

فإن كلمة رد هنا بمعنى جعل، أو صيّر.. لا بمعنى أرجع وأعاد، لأن شعور نسوة آل حرب لم تكن بيضاً، ليردها إلى البياض، كما أن الوجوه لم تكن سوداً، ليردها إلى السواد.. وإنما الحدثان، ومصائب الزمان، قد فعل بنسوة آل حرب هذا وذاك..

الأسفل مفهوم إضافي:

والأسفل، والسافل من المفاهيم الإضافية التي يحتاج تعقل أحدهما إلى الآخر.. فهو كالفوق، فإنه لا يتعقل إلا بتعقل التحت.. وكذلك الحال بالنسبة للسافل والعالي، والأسفل والأعلى، والأكبر والأصغر، والقريب والبعيد، والطويل والقصير، وغير ذلك..

كما أن الأسفل والسافل، والأقرب والقريب، والعالي والأعلى، وغير

---

(1) الآية 109 من سورة البقرة.

ذلك يعتبر من المفاهيم ذات المراتب، حين تضاف إلى أمر ثالث، أو شخص آخر.

فقوله تعالى: ﴿**أَسْفَلَ سَافِلِينَ**﴾ يشير إلى وجود عال وأعلى، وسافل وأسفل.

فيأتي هنا سؤال يقول: لماذا جعل الله الذين لم يؤمنوا أسفل سافلين، ولم يجعلهم من جملة السافلين؟!

ونجيب:

بأن الله تعالى حين يقول: إنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، حيث زوده بكل المؤهلات التي تمكنه من بلوغ أقصى الغايات.. وقد حدث هذا بالفعل، فبلغ نبينا إلى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى، ويتلوه علي «عليه السلام»، وإبراهيم وأولو العزم من الرسل، ثم سائر الأنبياء «صلوات الله عليهم»، بحسب درجاتهم عند الله تعالى..

بالإضافة إلى الأئمة والأوصياء، والأخيار، والعلماء الأتقياء، وسائر المراتب.. بحسب درجات استفادتهم من المنح الإلهية المودعة في تقويمهم الأحسن، والأمثل، على شكل ملكات، وعواطف وغرائز، ومشاعر، وعقل، وجمال صورة، واعتدال مزاج، وتناسق وتوافق، وعلوم ومعارف، وهدايات إلهية، وغير ذلك مما يمكن أن يكون وسيلة لاكتساب المثوبات، والحصول على المزيد من العطايا والهبات، وترشيد الطاقات..

ولكن هذا الإنسان إذا أخلد إلى الأرض، واتبع الهوى، وتمرد على الله الذي منحه كل هذا العطاء، جعله في أحسن تقويم، وقطع الصلة بينه وبين

الله، باختياره طريق الكفر والإنكار، ولم يعد للخير، ولا للكمال، ولا لرضا الله، ولا لصلاح العباد والبلاد، ولا قيمة عنده للرشاد والسداد.. فإنه يكون قد رضي بأن يصبح فاقداً لكل النعم، صفر اليدين من كل خير.

أما إذا مال إلى الدنيا بسبب طغيان شهوة، أو تمرد غريزة، أو بسبب ملالة أو كسل، وميلٍ إلى الراحة، أو متابعة لهوى، فارتكب بعض ما لا يجوز ارتكابه، كاغتياب مؤمن، أو ترك واجب، كما لو نام عن صلاة الصبح، أو سوَّف في قضاء صومه، أو أداء واجباته المالية، أو ما إلى ذلك.. ولكنه لم يزل يتشوق للتوبة، وما فتئ محباً للخير، ملتزماً بكثير مما أوجبه الله تعالى عليه، كبِرِّ الوالدين، والرفق بالضعفاء، والسعي في قضاء الحاجات، وغير ذلك.. فإنه، وإن لم ينل الدرجات العلى، ولكنه لا يكون في خسرانه، وشقوته كالمتمرد على الله، والمنكر لإلوهيته، ومن لا يقيم وزناً لكل ما يأتيه من قبله تعالى..

بل هذا العاصي يكون قابلاً للإصلاح، وترجى له التوبة التي يكون بها النجاح والفلاح، وربما يستثمر الكثير من العطايا الإلهية للحصول على بعض الصلاح.

فعلم: أن للتسافل مراتب، كما أن للعلو مراتب، ودرجات متفاوتة بحسب أعمال العباد، ودرجات إيمانهم..

وقد روي عن أبي عبد الله «عليه السلام»: أن الإيمان عشر درجات،

فالمقداد في الثامنة، وأبو ذر في التاسعة، وسلمان في العاشرة[1].

ويـدل على أن للإيمان مراتـب أيضاً قـوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً**﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً**﴾[3].. لأن كفرهم اقترن بالسعي لإشاعة الشكوك والأباطيل، لصد الناس عن الحق.

مقارنة لا بد منها:

وإذا قارنا بين الآيات في سورة التين، وبين قوله تعالى في سورة العصر: ﴿**إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾[4].

فنحتاج إلى الجواب على السؤال التالي:

أولاً: إنه تعالى ذكر في سورة العصر: أن الإنسان الذي هو على درجة من الكمال هو في خسر تدريجي، ونقصان متتابع. كما يفهم من قوله تعالى: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾.

---

(1) روضة الواعظين ص280 والخصال للصدوق ص448 وبحار الأنوار ج22 ص341 وج99 ص291 ومستدرك سفينة البحار ج1 ص209

(2) الآية 4 من سورة الأنفال.

(3) الآية 151 من سورة النساء.

(4) الآيتان 2 و3 من سورة العصر.

فلماذا كان الخسر تدريجياً في سـورة العصر.. والرد إلى أسـفل سـافلين كان دفعة واحدة في سورة التين، وإن كان حصوله يكون بعد فاصل زماني بينه وبين خلق الإنسان في أحسن تقويم؟!

ثانياً: إنه تعالى في سورة التين اسـتثنى من الرد أسـفل سـافلين ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ لكنه زاد على هـذين الأمرين أمرين آخـرين في سورة العصر فقال: ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾.

ونجيب:

أولاً: ليس سـبب هذا الاختلاف: أنه أجمل في سورة التين، وفصَّل في سورة العصر، بل هو أمر آخر نبيِّنُه كما يلي:

إنه تعالى قال في سورة التين: ﴿**ثُمَّ رَدَدْنَاهُ**﴾، فنسب الفعل لنفسه..

أما في سورة العصر، فلم ينسب الفعل إلى نفسه، بل أطلق الحكم بالخسران الذي يصيب الإنسان، دون أن يفصح عن مسببه وفاعله..

فإذا كان الله تعالى قد أعطى الإنسان أعظم العطايا وأجلَّها، حتى جعله في أحسن تقويم.. فرفض الإنسان ذلك كله، وطغى وتمرد، وجعل بينه وبين الله السدود، وأصر على الإنكار والجحود، وتجاهل كل هذه الملكات والمؤهلات، والمنح والبركات، فإن هذه المنح تصبح بلا أثر، وتتحول إلى ركام، فما بالك إذا وظفها في خدمة الشيطان، ورضي بأن يكون أسفل سافلين؟!

ولكنه في سورة العصر قد تحدث عن الإنسان الذي لم يرفض هذه الكمالات والعطايا، وإنما أراد أن يستفيد منها، ولكنه ربما غلبه هواه، أو دعته شهوته،

إلى بعض المخالفات، فإذا ارتكبها فكذب، أو اغتاب، أو لم يقم إلى صلاة الصبح مثلاً.. فإنه سيلحق ضرراً بكمالاته، وسيبتلى بالصدود عن الحق، وربما لم يستجب الله له دعاءً مدة من الزمان.. ولكنه لا يرد إلى اسفل سافلين، كما هو واضح.

ثانياً: ولأن الكلام في سورة العصر هو عن العصاة الذين لا يكرهون الحق، ولا يتنكرون للخير والصلاح.. فإن هذا الإنسان الذي قد يغلبه هواه يحتاج إلى الصبر على الطاعات، وإلى التزام جانب الخيرات، فلا يدفعه هواه إلى التعدي، أو إلى الظلم، أو الحيف على الآخرين..

إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا:

وقد قال تعالى: ﴿**إلا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، فاستفاد من الموصول، وجعل صلته فعلاً ماضياً، مع أنه كان يمكن أن يستثني المؤمنين مباشرة من دون توسيط اسم الموصول.

ونجيب:

بأن الإنسان قد يؤمن، لأنه ولد في بيئة إيمانية، أو اكتسب الإيمان من أمه، أو من أبيه، أو من تلقين مربيته، أو معلمه، أو ما إلى ذلك.. ويكون إيمانه عفوياً، وبصورة ساذجة، وغير واعية، بسبب غفلته عن التأمل في موجبات الإيمان، فلو قال: إلا المؤمنين، لتوهَّم متوهم: بأن إيمان الغافل الآتي من البيئة غير المتدينة ومن التلقين يكفي في ذلك.

ولكنه حين قال: ﴿**إلا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، علم أن المراد هو من اختار الإيمان بملء إرادته، بعد أن وجد نفسه أمام خيارين، فرجَّحت له الدلالات والقرائن

اختيار الإيمان، فاختاره.

وهذا هو المطلوب في الأمور العقائدية، إذ لا يكفي فيها تقليد الآباء، والأخذ من أي كان من الناس..

بل المطلوب: الإيمان عن دليل وحجة، وإنما يفعل هذا الإنسان الواعي والمتوازن.

وهذا يفسر لنا أيضاً: قوله تعالى: ﴿**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾، فإن المطلوب هو اختيار العمل بالصالحات، فلو أكره على الإتيان بها لم تفده في الوصول إلى الأهداف السامية كما تقدم.

ثانياً: إن الاستفادة من الفعل الماضي في موارد العلم بأن المراد يشمل الحال والاستقبال أيضاً، يفيد: أن ما يتحدث عنه حتمي الوقوع إلى حد أنه يخبر عنه كأنه قد وقع فعلاً.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ:

1 ـ ثم أضاف إلى الإيمان الآتي عن تدبر، ووعي واختيار قوله: ﴿**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾. ومن المعلوم: أنه تعالى لم يزل يقرن الإيمان بالعمل الصالح في العشرات من الآيات..

وقد علم مما ذكرناه آنفاً: أنه تعالى إنما قال: ﴿**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ بصيغة الفعل الماضي لسببين:

أحدهما: الإعلام بأنه أمر حاصل بلا ريب، حتى ليصح أن يُدَّعى أنه قد حصل فعلاً.

الثاني: أنه يريد أن يدل على أن إيمانه ليس مورثاً، وليس عفوياً، ولم يأته على حين غفلة منه، بل هو عن التفات وتدبّر، واختيار، استناداً إلى الدليل والحجة.

2 ـ إنه تعالى اختار كلمة الصلاح لتكون عنواناً للعمل في هذه الحياة، ربما ليدل بذلك على أن العمل الصالح هو الذي ينسجم مع طبيعة التكوين، ويتوافق مع مقتضيات الخلقة، ويؤدي الغاية التي أراد الله تعالى له أن يؤديها.

والعمل الصالح ليس هو مجرد عمل توليدي، يخرج من عالم القوة إلى عالم الفعل.. بل هو جهد، وإخلاص، ونية، وأهداف.. فمن يصلي وهو مسلم ومؤمن، متقرباً إلى الله تعالى، تكون صلاته محققة لأهدافها، لكن من يصلي رياء مثلاً، فإن صلاته ليس فقط لا توصل إلى غاياتها، بل هي تبتعد عنها، وتوجب تضييعها وبوارها.

ومن ينفق المال على الفقراء لشراء ولائهم، ولتسخيرهم في تحقيق أغراضه الشخصية الدنيوية، واستغلال جهدهم في خدمة طموحاته الشريرة، أو شهواته الخطيرة، فإن انفاقه هذا يكون رذيلة وليس فضيلة.

ومن يتعامل مع الآخرين بصدق وأمانة بهدف جرهم إليه، والتقويِّ بهم على باطله، فإن عمله هذا يكون إجرامياً، وليس من الفضائل في شيء، بل هو ينم عن درجة عالية من الغرور، والأنانية، وتضخم حب الذات لديه، بل هو وحش كاسر، وجبار قاهر.. وصدقه هذا، وأمانته تلك يكونان من رذائله، لا من فضائله.

كما أن من يصوم ويحج ليكسب وجاهة وموقعاً عند الناس، وهو في

الباطن ملحد لا يؤمن بالله، ولا بأنبيائه ولا ببعث ولا حساب، لا يمكن عد أي شيء من أعماله من الصالحات..

3 ـ يلاحظ هنا أمران:

أحدهما: أنه تعالى حين ذكر العمل بيَّن صفته، والخصوصية المطلوبة فيه، وهي: أن يكون صالحاً.

ولكنه حين ذكر الإيمان، لم يذكر له أي وصف، أو متعلق، فهل المراد الإيمان بالله، أو بالنبي، أو البعث، أو غير ذلك؟!

الثاني: إنه تعالى ذكر الإيمان، مكتفياً بالإشارة إلى حقيقته.

ولكنه حين تحدث عن العمل تحدث عن مصاديقه، وأفراده المتعددين.. فجاء بصيغة الجمع، ولم يشر إلى طبيعة العمل من حيث هو عمل.

ونجيب:

بأنه تعالى يقول: ﴿**أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ. بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ. بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ**﴾[1].

ومن الواضح: أن إنكار المشرك وجود الله تعالى، ورضاه بأن يعبد الحجر والشجر، وتُنكر النبوات، والبعث والحساب، والثواب والعقاب، فإن كل همّه يكون مصروفاً لإنكار هذا الأمر الأخير، أعني البعث والحساب، لأن القبول بهما يحتم عليه الخضوع لأحكام الشرائع، ويقيد حركته، ويفرض

(1) الآيات 3 ـ 6 من سورة القيامة.

عليهم طاعة الأنبياء..

وهـو يريد التحرر مـن أي التزام، حتى لا يكـون عليه أي رقيب أو حسيب، فكيف إذا ألزمته بالرقابة الإلهية التي تكون من قبل علام الغيوب؟! ومن هو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، الذي لا بد أن يحاصره بالأحكام، والأوامر، والزواجر، ثم بالاشراف على كل كبيرة أو صغيرة..

لاسيما وأنه جعل الحساب والثواب في المستقبل، فلم يكن ليفوته أحد، ولا يمكنه الهرب والنجاة إلا أن يخرج من أرض الله، ومن تحت سمائه ومن أين، وأنَّى له ذلك؟!

هـذا، في حين أن القوانين في الدنـيا يمكن التملص والخلاص منها، بالتستّر على المخالفة، وبالاحتـيال على القانون، بل هـو قد يوظف القانون لخدمة أهوائه، ولا يستطيع أحد فعـل شيء معه، حتى لو كان الأمر واضحاً وفاضحاً، فبالقانون تُسلب الحقوق، ويُظلم الضعيف، ويعتدى على الأبرياء، وما إلى ذلك..

ولأجل ذلك تجد المشركين والكافرين يستميتون في حربهم على الأديان، وأهلها، ويحرصون على إلقاء الشبهات، وإثارة الشكوك.

وهذا ما يرمي إليه قوله تعالى: ﴿**بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ**﴾[1].

أي في مستقبل أيامه، يريد أن يخرق الحواجز، ويتفلت من القيود،

(1) الآية 5 من سورة القيامة.

ويفسد حياة الناس، ويعرقل مسيرتهم في الحياة، ويعبث بسعادتهم.

وبذلك يظهر: أن الإنسان الكافر، يجرّه تكذيبه بيوم الدين والقيامة إلى الطعن بالنبوات، وحين تقهره معجزاتهم، فلا مانع لديه من إنكار الإلوهية من رأس.

وللتوضيح أكثر نقول:

إن قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾. قد دلنا على ما له تعالى من صفات، وأنه حي قيوم، قادر، حكيم، عليم، حليم، مدبر، رازق، شاف، رحيم، وغير ذلك من صفات تحتاج إليها عملية الخلق في أحسن تقويم.. في حفظه، وبقائه، ورعايته، وتنميته، وصونه، وفتح الآفاق أمامه.. بالإضافة إلى هدايته، وعلمه، وتربيته، وتأكيد عبوديته لله تعالى، ليستفيد من كل ما حباه الله به في مسيرته نحوه تبارك وتعالى.. ويبلغ أعلى الدرجات، وأقصى الغايات.

كما أن ذلك يحتم إرسال الرسل إليه، وإبلاغه الشرائع والأحكام، وكل ما يحتاج إليه.. ثم إلى مراقبة وإشراف، ثم إلى محاسبة ومثوبة، وعقوبة.. إذ لولا ذلك لم يكن للتشريع فائدة.

فَخَلْقُ الإنسان في أحسن تقويم دلنا على الله، وصفاته، وأسمائه، وعلى أنبيائه، وعلى الشرائع والأحكام، وعلى البعث والنشور، وسائر الاعتقادات.

ولذلك قال: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، من دون تقييد، ليكون مدخلاً إلى جميع الاعتقادات.

الصالحات هي المعيار:

1 ـ وملاحظة أخرى نسجلها حول كلمة الصالحات، وهي: أنه تعالى لم يقل مثلاً: عملوا ما فرضناه عليهم، أو ما شرَّعناه لهم.. ربما لكي لا يتوهم: أن المطلوب في التشريع هو فعل المأمور به، حتى لو لم يكن فيه حفظ مصالح العباد، ومنها مصلحة العامل بالتكليف نفسه.

فأراد تعالى أن يصرِّح: بأن المطلوب هو ما فيه صلاح للناس، ومنهم العامل.. بالإضافة إلى حفظ الانسجام، والتوافق مع سائر المخلوقات التي لها علاقة من نوع ما بالفعل الذي أنجز.. سواء أكانت علاقة تكوينية، أو علاقة اجتماعية، أو حالة نفسية، أو مشاعرية.

ومن جملة ما يحقق صلاح الفعل هو التعبد والإنقياد، والطاعة، فإنها حاجة وضرورة للعباد، وليست حاجة لله سبحانه، قال تعالى مخاطباً عباده: ﴿**أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾[1].

2 ـ وقد ظهر مما تقدم: أن غايات وأهداف الإنسان الذي هو في أحسن تقويم، لا تتحقق إلا بعنصرين، هما: الإيمان والعمل الصالح. ولا يكفي أحدهما.

3 ـ وقال: ﴿**الصَّالِحَاتِ**﴾.. الألف واللام للعهد. أي الصالحات التي نعرفها.. إما بإدراكنا لصلاحها، أو لدلالة الشرائع على الصلاح فيها، أو للإشارة إلى الحقيقة، وفي الحالتين نقول:

المراد: الأعمال الصالحة صلاحاً واقعياً حقيقياً، من حيث انسجامها مع

---

(1) الآية 15 من سورة فاطر.

ما تقتضيه الفطرة، وما يلائم الخلقة، وما يفرضه النظام الكوني العام في مختلف المجالات، وسائر الاتجاهات، وما تتطلبه النواميس التي أودعها الله في هذا الكون الرحيب والعجيب.

4 ـ كما أن هذه اللام تفيد الاستغراق، حيث يراد بها جميع الأعمال الصالحة، حين لا بد من فعلها، حيث يحضر وقتها وأوانها.

ولو قال: وعملوا صالحاً، أو عملوا صالحات لاختل المعنى.. لأن الإنسان قد يكتفي بالعمل الصالح في بعض حياته، ولو بصورة انتقائية في حين أن المطلوب: هو أن لا يخل بالعمل الصالح في حياته كلها، ولو في جزئية مهما صغرت، لأن ذلك يلحق ضرراً ونقصاً بحسن التقويم.

فَلَهُمْ أَجْرٌ:

ثم قال تعالى: ﴿فَلَهُمْ﴾.. الفاء: حرف عطف وربط لما في الموصول من معنى الشرط.

واللام في لهم تفيد الملكية، بمعنى: أن الله الذي هو المالك الحقيقي لجميع الأشياء، يُملِّك عبده المؤمن العامل للصالحات ما يمنحه تعالى إياه من عطايا.

فهو عطاء على سبيل التمليك، ولذا لم يقل: فسأعطيهم كذا وكذا، أو سأمنحهم جائزة، أو مكافأة تتساوى مع حجم أعمالهم، لأن ذلك لا يجعل للإنسان أي حق في الجائزة، أو المكافأة، أو العطية، بل هي بمثابة منحة وهدية لا أكثر، ويمكن أن لا نهدى أو لا نمنح أحداً شيئاً.

ولكن إذا ملَّكته شيئاً، فليس لك أن تحبسه عنه، أو أن تسلبه إياه، فلو

حصل ذلك كان منافياً لمعنى العدل، ويصبح من الظلم المنافي لمعنى الألوهية.

ويؤكد هذه المعاني قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ﴾.. فإن الأجر لا يكون إلا مقابل عمل، ويكون عن استحقاق، وإن كان أصل جعل الأجر لعبد مملوك ملكاً حقيقياً لمولاه، يكون تفضلاً من المولى. إذ ليس للعبد أن يمتنع عن امتثال أمر سيده، في حين أن للسيد أن يتفضل على عبده، كما يتفضل على ولده تكريماً، أو ترغيباً له بالمزيد من الطاعة، وابتغاء المثوبة، وليندفع الآخرون للتأسي والاتباع أيضاً.

ومن المعلوم: أن الاستحقاق على نحوين:

1 ـ استحقاق حقيقي يفرضه الواقع.

2 ـ استحقاق تفضلي تكريمي، أو من موقع الرأفة والرحمة.

وإذا تفضل الله تعالى، وجعل لنا أجراً على أعمالنا، ثم سوَّفنا، وأهملنا، ولم نفعل شيئاً، فلا نستحق أجراً؟!

غَيْرُ مَمْنُونٍ:

وقوله تعالى: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يريد أنه غير مقطوع، لا من قبل نفسه، ولا بأن يقطعه غيره.

ولم يقل: غير منقطع، لأنه قد يظهر منه أنه لا ينقطع بنفسه، إلا أن يقطعه الآخرون، وهذا المعنى لا يدل على تواصل العطاء، الذي هو مقتضى التفضل الإلهي..

ومقتضى كونه أجراً على أمر ثابت وباق، أنه أجر باق، إما بنفسه، أو

لأجل اتصاله بالباقي والمطلق، واللامتناهي، حين يؤتى به لوجه الله الباقي. قال تعالى: ﴿**وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾[1].

(1) الآية 27 من سورة الرحمن.

الفصل الخامس:

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ؟! **أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ**

فَمَا يُكَذِّبُكَ:

ونصل هنا إلى قوله تعالى: ﴿**فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ**﴾[1].

ومن المعلوم: أن الفاء في قوله: ﴿**فَمَا**﴾ هي فاء الفصيحة، أو الفضيحة، لأنها تفضح شرطاً، أو تفصح عن شرط مقدَّر، دل عليه سياق الكلام، فكأنه قال: إن علمت هذا أيها الإنسان، فما يكذبك؟!

وهذا يعطي: أن المقام مقام استدلال واحتجاج، فيكون ما بعد فاء الفضيحة نتيجة وثمرة لما قبلها، وليس كلاماً اقتراحياً، ولا هو تقرير أمر بصورة عفوية، وابتدائية.

يُكَذِّبُكَ:

وتضمن قوله: ﴿**يُكَذِّبُكَ**﴾ الإشارة إلى أمور عديدة، نذكر منها ما يلي:

ألف: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب.. فبعد أن ذكر خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم تابع الكلام مستفيداً من ضمير الغائب، وما يناسب الغيبة من الصيغ، ثم التفت إليه ليقول له: ﴿**فَمَا يُكَذِّبُكَ**﴾ مستفيداً من كاف الخطاب.

وهو إنما يتحدث عن الإنسان بما هو موجود عاقل مختار، وربما اختار

---

(1) الآية 7 من سورة التين.

الكفر وقليل منه يختار الإيمان.. وها هو قد التفت وشافهه بالكلام، وواجهه بالحقيقة..

ومن المعلوم: أن المواجهة والمشافهة أقسى عليه مما لو تكلم عنه بصيغة الغائب، فإن المشافهة فيها تشديد للإنكار عليه، وإظهار لشناعة هذا السلوك الذي اختاره لنفسه.

ب: إن كلمة «ما» في قوله تعالى: ﴿فَمَا﴾ هي للاستفهام الإنكاري التوبيخي، وفيه عتب وملامة، وتخطئة تدعو لمراجعة الحسابات.

ج: إنه تعالى قال لهذا الإنسان: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾، ولم يقل له: لماذا تكذب بيوم الدين؟! ولعل السبب في اختيار هذا التعبير: أنه في نفس الوقت الذي يقرر سبحانه الحقيقة ـ أعني حقيقة التكذيب ـ كما هي، وبضرس قاطع، لا يشوبه شك أو ترديد.. يريد سبحانه أن يسهِّل أمر التراجع، وإعادة النظر على هذا الإنسان الضعيف الذي تتحكم به أهواؤه وشهواته، وتقوده ـ بالشبهات والعصبيات، والإغراءات وسواها ـ إلى الضلال والانحراف..

فلذلك قال له: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾. أي ما الذي جعلك تفعل هذا؟! وكأنه فرضه يعاني من أمر يضغط عليه، ويفرض عليه هذا التكذيب، ولو خلي ونفسه، لربما يكون له موقف آخر.. ولأجل ذلك لم ينسب إليه التكذيب مباشرة، وإنما أزاحه قليلاً من المواجهة المباشرة، ليتمكن من أن ينسلَّ ليكون بعيداً عنها، ثم يتنكر لهذا التكذيب، وبذلك يحفظ له بعض ماء وجهه، ولا يكون في غاية المذلة والانسحاق.

وهذا من مفردات الرفق والرحمة به..

بَعْدُ:

وقوله: ﴿بَعْدُ﴾ مبني على الضم لحذف المضاف إليه، ونية الإضافة، التي هي المعاني الحرفية التي تدعو لبناء ما تعلقت به، لأنها تجعله مفتقراً إلى الطرف الآخر أيضاً، فكأنه قال: «فما يدعوك» بعد هذه الدلالات الظاهرة إلى التكذيب.

بِالدِّينِ:

وقد أنكر عليه التكذيب بالدين، ولم يقل: بالبعث والنشور، أو بيوم القيامة، مثلاً..

ولعل سبب ذلك: أن الأمر الذي تحكم به العقول هو مجازاة من يتمرد على مولاه، الخالق، والرازق، والشافي، والمدبِّر الخ.. ويهتك الحرمات.. ولاسيما إذا كان مولاه هو خالقه، ورازقه، ومدبره، وحافظه الخ..

وأما أن يكون ذلك الجزاء بهذه الطريقة، أو بتلك، فإن العقول لا تدرك ذلك.. فلا يحكم العقل: بأن العقوبة لا بد أن تكون بعد البعث والنشور للأجساد، وإنما يثبت ذلك بالنص، فقد تكون في البرزخ، أو قبل ذلك..

كما أن العقل لا يحتم أن تكون العقوبة والمثوبة من خلال هذا الجسد مثلاً.. وإنما ذلك يعيِّنُه النص..

وهل المجازاة بالنار، أو بالسجن، أو بغير ذلك؟! وهل المثوبة بالجنان، أو بأنواع أخرى من النعم؟! إن النص هو الذي يحدد ذلك أيضاً.

وهذا الحكم العقلي بلزوم المثوبة والعقوبة لا يختص بالمؤمن، بل تحكم به

جميع العقول، ومنها عقول المشركين والكافرين، والعلماء، وغير العلماء.. و.. و..

ولكن لو قال: فما يكذبك بيوم القيامة؟! فقد يقول قائل: إن يوم القيامة لا تدركه عقولنا، لأن إدراك هذا الأمر يتوقف على الاعتقاد بالألوهية، والنبوة، وتصديق الأنبياء فيما يقولونه، فلا تدركه عقول سائر البشر: المشرك والكافر منهم، والمؤمن.

أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ؟!:

ثم قال تعالى: ﴿**أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ**﴾..

فقد استُهِلَّت هذه الآية باستفهام تقريري، بحقائق لها دور محوري ومصيري في الوجود كله..

ومن هذه الحقائق:

أولاً: الألوهية حقيقة مفروغ عنها:

تضمنت اعتبار التوحيد أمراً مفروغاً عنه، وأساساً غير قابل للريب، وهو من المسلمات التي لا مجال للنقاش فيها، وما تضمنته سورة التين من ألفها إلى يائها حافل بالدلالات والشواهد القاطعة على هذا الأمر..

ثانياً: إنّه تعالى حاكم:

وأثبتت آيات هذه السورة المباركة: أنه تعالى حاكم على هذا الكون كله، لأن من يخلق الكون كله، ويخلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم يرده أسفل سافلين، ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾، فهو حي، قيوم، عالم، قادر،

مدبر، غفور، رحيم، حكيم، حليم.. وهو العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، الرازق، الشافي، والخبير، والبصير.. إلى غير ذلك من الصفات الحسنى، والأمثال العليا، التي هي صفات الحاكم المهيمن، المدبر لجميع الكائنات.

ثالثاً: إنه تعالى حكيم:

إن الله تعالى بما له من صفات أشرنا إلى بعضها آنفاً هو المهيمن والمتصرف، والمدبر لهذا الكون كله، من موقع الحكمة، والعلم، والقدرة، والرحمة، ولهذا كان هو الحاكم المطلق في المخلوقات كلها، والخالق للإنسان في أحسن تقويم، وهو المطَّلع على الأسرار والخبايا، والعالم بالخفايا، والأقرب إلى الإنسان من حبل الوريد.

وبسبب ذلك، فهو القادر على أن يضع الأمور في مواضعها لوقوفه على الأسرار، وعلى الحقائق والدقائق، وعلى مدى التفاعل والتأثير، والتأثر بين الموجودات.

ولو كان هناك أدنى خفاء للأمور عليه، ولو بمقدار ذرة، لما أمكن الإطمئنان إلى أن الأمور قد وضعت في مواضعها بالفعل، بل تكون الأمور موكولة إلى الصدف.

الحكمة تحتاج إلى تعليم:

وقد قال تعالى في سورة الجمعة: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ**

قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1].

فقد دلت هذه الآيـة على أن الحكمة تحتاج إلى تعليم، ودلالة إلهية، وأن الأميين الذين أرسل الله إليهم نبيه محمداً «صلى الله عليه وآله» كانوا قبل إرساله إليهم في ضلال مبين، لأنهم لم يستفيدوا من الآيات الآسرة للعقول، وكانوا يجهلون بالكتاب، ويجهلون بالحكمة.

وقـد يظن ظـان: أن الحكمة إذا كانت هي وضع الأمور في مواضعها، فإن كل عاقل سيكون عارفاً بها، قادراً على العمل بموجباتها.. لأن الناس يدركون الأمور، ويعرفون كيف يتعاملون معها..

غير أننا نقول:

إن الإنسان وإن كان يملك عقلاً، لكن العقـل مجرد آلة للإدراك، إذا وضعت الأمـور أمامه.. فإن غابت عنه، فإن قـدرته على وضـع الأمور في مواضعها لا تفيد شيئاً، ولا توصل إلى شيء، إلا في بعض الموارد اليسيرة جداً، التي لا يشوبها أي غموض، أو إبهام..

والأمر في أكثر الموارد ليس كذلك، فإن الإنسـان لا يعرف من أسرار الخلق شيئاً يذكر.. ويكفي في الدلالة على ذلك قوله تعالى: ﴿**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾[2].

---

(1) الآية 2 من سورة الجمعة .

(2) الآية 7 من سورة الروم.

وقد جاءت كلمة «ظاهراً» منكرة، لإفادة التقليل، فكيف يعرف الجاهل بالأمور طبيعة التأثر والتأثير في الموجودات، وحقيقة التفاعل بين هذا الأمر، وبين ما عداه من موجودات وأحوال؟!

ويدل على ذلك أيضاً نفس آية سورة الجمعة، التي ذكرناها آنفاً.

الحكمة تتلاقى مع صفاته تعالى:

ويلاحظ: أنه تعالى قد ركز على صفة الحكمة.. وهي الصفة التي تتلاقى مع أكثر الصفات التي نجريها عليه تعالى، واستفدناها من قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ إلى آخر السورة.

فالحكيم يلتقي مع الكريم والحليم، والرحيم، والعليم، والقادر، والبصير، والخبير، والخالق، والرازق، والحي القيوم، والشافي، و.. و.. الخ..

في حين أن بعض الصفات الأخرى، لا يتمتع بهذه الخصوصية، فلو استبدل تعالى الحكمة بصفة القادرية مثلاً، فقد نجد بعض القاصرين، ومرضى النفوس يقول:

لعل هذا القادر لا يضع الأمور في مواضعها، أو قد لا يكون غفوراً ولا رحيماً، ولا تواباً، ولا عالماً بالخفايا، ولا أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد..

لكن الحكيم يكون تواباً، وغفوراً من موضع حكمته، ويكون أيضاً رازقاً، وشافياً، ومدبراً.. إلى آخر ما قدمناه.

الحاكم يحتاج إلى الحكمة:

ومن الواضح: أن الحكمة هي من أهم صفات الحاكم الخالق، القادر،

العالم، المتصرف، المدبر الخ.. لأن حكومته وهيمنته، وإمساكه بالأمور، ومسؤوليته تجاه من يرعاه، ويريد أن ينميه، ويزكيه، تفرض أن يضع الأمور في مواضعها، وهذا يحتاج إلى العلم، وإلى القدرة، وغير ذلك أيضاً..

الله أحكم الحاكمين:

والسؤال هنا هو:

كيف يقيس الله تعالى نفسه في حاكميته، وهيمنته، وحكمته، وتدبيره، بسائر الحكام سواه، وهم من مخلوقاته، وفي قبضته؟! ألا يعد هذا إمضاء لتصرفات هؤلاء القاصرين، وإقراراً لحاكميتهم؟!

ونجيب:

أولاً: إنه لا دليل على أن المراد بالحاكمين هو كل من تسلط على غيره، ولاسيما هؤلاء الظلمة، والجبارون، ولا نحسب أن لدى هؤلاء اهتماماً بالقسط والعدل، ووضع الأمور في مواضعها، إلا في الموارد التي يريدون أن يجلبوا بها نفعاً لأشخاصهم، أو أن يدفعوا ضراً عن أنفسهم.. وهؤلاء لا يقيس الله تعالى نفسه بهم، لأنهم لا يعرفون شيئاً عن أسرار الخلق والتكوين، وإنما هم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا.

فهل يقاس هؤلاء برب العزة، الخالق، القادر، العليم، الحكيم الخ..؟!

بل إن نفس تسلطهم على الناس بغير حق، ومن دون رضى خالقهم يعد نقضاً لمعنى الحكمة، لأنه يكون وضعاً للأمور في غير مواضعها.

ثانياً: إن المقصود بالحاكمين في الآية الشريفة ـ كما يظهر ـ: هو الأنبياء،

وأوصياؤهم، ومن يقيمونه مقامهم، من الأبرار الأخيار، لأنهم هم الذين أذن الله تعالى لهم بهداية الأمة، ورعايتها، وتدبير شؤونها من موقع الحكمة، ومراعاة أحكام الشريعة، والتماس رضا الله تبارك تعالى..

وللتوضيح نقول:

ألف: إن بعض الأمور تكون في غاية الوضوح والظهور، وليس فيها أي لبس، مثل لزوم معونة الأنبياء، وقبول دعوتهم، والذب عنهم، وحفظهم، والجهاد بين أيديهم.. بعد ظهور صدقهم بالمعجزات، مثل إحياء عيسى «عليه السلام» للموتى، وإبرائه الأكمه والأبرص..

فهذه المعونة، وذلك الجهاد والنصر يكون من الحكمة، التي تدركها العقول على اختلافها..

ب: ومن الحكمة: ما تكفل الشرع بالإرشاد إليه، والدلالة عليه، من خلال ما شرعه من أحكام، وما أفصح عنه في بياناته القاطعة.

ج: من الحكمة أيضاً: ما قد يبقيه الله في دائرة الغموض، حتى بالنسبة للأنبياء والأوصياء، لمصالح يعلمها سبحانه تقتضي ذلك.. فيرجع النبي إلى الله ليكشف له الحقيقة عن طريق الوحي إليه.

د: ومن موارد الحكمة: ما استأثر الله تعالى به لنفسه، مما يرتبط بأسرار راقية جداً، فيكون الله تعالى وحده العالم بما يتلاءم معها، ويليق بها.

فبعدما تقدم نقول:

هؤلاء الحاكمون من الأنبياء، والأوصياء، والأخيار التابعين لهم، هم الذين يسعون في مصالح العباد، ويتعاملون معهم وفق مقتضيات الحكمة،

وما ينسجم مع شؤون التكوين بصورة دقيقة، من خلال إجراء أحكامه سبحانه، والرجوع إليه سبحانه، ليمدهم بواسطة الوحي، بما يحتاجون إليه مما وراء ذلك..

وقـد ظهر مما تقدم أيضاً: أن ثمة فرقـاً بين آلة الإدراك للحكمة، وهي العقل، وبين الحكمة نفسها، فإن الآلة قد تعجز عن إدراك الحكمة بسبب عدم معرفتها بأسرار الخلقة، وبمقتضياتها وأحوالها..

السؤال التقريري الأخير:

ثم إن هذا السؤال التقريري في هذه الآية الأخيرة من هذه السورة يدلنا على أمور ثلاثة:

أولها: أن الله تعالى قد جعل من خلق الإنسان، ومن مسيرته في الحياة دليلاً على عدم وجود مبرر للتكذيب بيوم الدين والجزاء.

ثانيها: أنه جعل سبحانه من ذلك كله بما فيه حقيقة الجزاء دليلاً على حكمة الله، بل على أحكميته، التي لا تدانيها حكمة..

ثالثها: إنه دليل على حاكميته الحقيقية، وهيمنته التامة على جميع المخلوقات.

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، محمد وآله الطاهرين..

كلمة أخيرة:

وحين نختم الكلام حول سورة التين، فإننا نحب أن نعيد التذكير بعجزنا عن إدراك معاني القرآن، ومع تأكيدنا على أن ما نجده في السور القصار من حقائق ودقائق ما هو إلا غيض من فيض، وقطرة من بحر.. لا نجد أمامنا خياراً منطقياً ومعقولاً، سوى الانكفاء عن خوض غماره، ومواجهة تياره..

ونكتفي بهذه الإطلالة على سواحله التي لا تنتهي، معترفين بقصورنا الشديد، وعجزنا الأكيد..

وليس بيدنا أية حيلة، أو وسيلة لنيل بعض جواهره، إلا أن نعود إلى الذين خوطبوا به، فعرفوه، ووفقهم الله لإدراك أسراره، واستكناه معانيه، فتدبروا بها وعقلوها.. لكي نأخذ منهم، ونحمل عنهم..

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطاهرين..

بيروت - 26 شعبان سنة 1437هـ ق

الموافق 2 حزيران سنة 2016م ش.

جعفر مرتضى الحسيني العاملي

الفهـارس

1 - الفهرس الإجمـالي

2 - الفهرس التفصيلي

الفهرس الإجمالي

الفهرس التفصيلي:

كتب مطبوعة للمؤلف

1 ـ الآداب الطبية في الإسلام

2 ـ ابن عباس وأموال البصرة

3 ـ ابن عربي سنيّ متعصب

4 ـ أبو ذر لا إشتراكية.. ولا مزدكية

5 ـ أحيـوا أمـرنا

6 ـ إدارة الحرمين الشريفين في القرآن الكريم

7 ـ إسرائيل.. في آيات سورة بني إسرائيل.. تفسير ثمان آيات..

8 ـ الإسلام ومبدأ المقابلة بالمثل

9 ـ الإعتماد في مسائل التقليد والإجتهاد (صدر منه جزء واحد)

10 ـ أفلا تذكرون «حوارات في الدين والعقيدة»

11 ـ أكذوبتان حول الشريف الرضي

12 ـ الإمام علي والنبي يوشع ‘

13 ـ أهل البيت ^ في آية التطهير

14 ـ أين الإنجيل؟!

35ـ الحياة السياسية للإمام الجواد ×
36ـ الحياة السياسية للإمام الحسن ×
37ـ الحياة السياسية للإمام الرضا ×

38ـ خسائر الحرب وتعويضاتها
39ـ خلفيات كتاب مأساة الزهراء ÷ (ستة أجزاء)
40ـ دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام (أربعة أجزاء)
41ـ دراسة في علامات الظهور
42ـ دليل المناسبات في الشعر
43ـ رباائب الرسول ’ «شبهات وردود»
44ـ رد الشمس لعلي ×
45ـ زواج المتعة (تحقيق ودراسة) (ثلاثة أجزاء)
46ـ الزواج المؤقت في الإسلام (المتعة)
47ـ زينب ورقية في الشام!!
48ـ سلمان الفارسي في مواجهة التحدي
49ـ سنابل المجد (قصيدة مهداة إلى روح الإمام الخميني وإلى الشهداء الأبرار)
50ـ السوق في ظل الدولة الإسلامية
51ـ سياسة الحرب في دعاء أهل الثغور
52ـ سيرة الحسين × في الحديث والتاريخ (أربعة وعشرون جزءاً)
53ـ شبهات يهودي
54ـ الشهادة الثالثة في الأذان والإقامة

55ـ الصحيح من سيرة الإمام علي × (ثلاثة وخمسون جزءاً)
56ـ الصحيح من سيرة النبي الأعظم ′ (خمسة وثلاثون جزءاً)
57ـ صراع الحرية في عصر الشيخ المفيد
58ـ طريق الحق (حوار مع عالم جليل من أهل السنة والجماعة)

59ـ ظاهرة القارونية من أين؟! وإلى أين؟!
60ـ ظلامة أبي طالب ×
61ـ ظلامة أم كلثوم
62ـ عاشوراء بين الصلح الحسني والكيد السفياني
63ـ عصمة الملائكة بين فطرس.. وهاروت وماروت
64ـ علي × والخوارج (جزءان)
65ـ الغدير والمعارضون
66ـ فصل الخطاب في الميزان
67ـ القول الصائب في إثبات الربائب
68ـ كربلاء فوق الشبهات
69ـ لست بفوق أن أخطىء من كلام علي ×
70ـ لماذا كتاب مأساة الزهراء ÷؟!
71ـ ماذا عن الجزيرة الخضراء ومثلث برمودا؟!
72ـ مأساة الزهراء ÷ (جزءان)
73ـ مختصر مفيد (أسئلة وأجوبة في الدين والعقيدة)، (ثمانية عشر جزءاً).
74ـ مراسم عاشوراء «شبهات وردود»

75ـ المسجد الأقصى أين؟!

76ـ مقالات ودراسات

77ـ منطلقات البحث العلمي في السيرة النبوية

78ـ المواسم والمراسم

79ـ موقع ولاية الفقيه من نظرية الحكم في الإسلام

80ـ موقف الإمام علي × في الحديبية

81ـ ميزان الحق «شبهات وردود» (أربعة أجزاء)

82ـ نقش الخواتيم لدى الأئمة ^

83ـ وقفات مع ناقد

84ـ الولاية التشريعية

85ـ ولاية الفقيه في صحيحة عمر بن حنظلة

قيد الإعداد

1ـ الإعتماد في مسائل التقليد والإجتهاد (الجزء الثاني)

2ـ تفسير سورة الفلق

3ـ تفسير سورة التوحيد (الإخلاص)

4ـ تفسير سورة المسد

5ـ تفسير سورة النصر

6ـ تفسير سورة التكاثر

7ـ تفسير سورة العاديات

8ـ مختصر مفيد (المجموعة 19)